

أحمد عبّاس صالح



اليمين واليسار في الإسلام



المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

الاستاذ / محمد فوزى الاخناوى
جمهورية مصر العربية

إهــــــــداء٢٠٠٩

الاستاذ / محمد فوزى الاخناوى
جمهورية مصر العربية

اليمين واليسار في الإسلام

أحمد عباس صالح

اليمين واليسار في الإسلام

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت

الطبعة الثانية

كانون الثاني ١٩٧٣

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
ص. ب: ٥٤٦٠ - تلفون: ٢٥٦١١٠
بيروت - لبنان

اليمين واليسار

اصطلاح اليمين للدلالة على المحافظين ، واصطلاح اليسار للدلالة على الثوريين، اصطلاح غربي يرجع الى قيام أول هيئة برلمانية في العالم الغربي حيث جلس المحافظون في اليمين وجلس المعارضون في اليسار .

ومنذ هذا التاريخ والكلمة تتغير وتتطور في اطار معناها هذا الى أن أصبح اليسار يعني الآن الاشتراكيين على مختلف درجاتهم ، وانقسم اليسار نفسه الى وسط اليسار ويمين اليسار ويسار اليسار ، ولكن اليسار بمعناه العام وثيق الصلة بالاشتراكية ويدل عليها .

وحين نريد أن نرجع لاصل معنى اليسار واليمين في اللغة ، سنحتاج الى بحث طويل في المعاجم وكتب المفسرين ، وخاصة اذا كنا سنتحدث عن اليسار واليمين في الاسلام . ذلك اننا سنجد أن أهل اليمين في الجنة دائماً وأهل الشمال في النار دائماً ، فلليمين معنى الموافقة والايمان ، في حين أن لليسار معنى المخالفة والانكار . ولم يخل القرآن الكريم من ذكر أهل اليمين وأهل اليسار معاً بما يتفق مع هذين المعنيين ، بل ان من يتناول كتابه بيمينه يوم الحساب سوف يحاسب حساباً يسيراً واما من يتناول كتابه بشماله فسوف يحاسب حساباً عسيراً .

ولكننا هنا نعني باليسار هؤلاء الذين اهتموا بالجانب الاجتماعي في الاسلام ،

واعتقدوا انه – الى جانب كونه ديانة سماوية تنظم العلاقة بين الله والانسان – فلسفة اجتماعية تنظم العلاقة بين الناس بعضهم والبعض الآخر لصالح الغالبية العظمى التي تتكون من الفقراء والمستضعفين . بل أنهم يرون جوهر العلاقة بين الله والانسان يقوم على سلوك الانسان بالنسبة لسائر البشر . هذا السلوك الذي ينبغي ان يقوم على التساوي والتعاطف والتضامن فلا سبيل الى علاقة طيبة بين الله والانسان الا عن طريق السلوك الطيب هذا وهو العمل الصالح .

إذن فاليسار الذي نعنيه هنا هو اليسار بمعناه الاصطلاحي الحديث ، أي هؤلاء الذين يعنون بالمسألة الاجتماعية ويؤمنون بأن الاسلام الصحيح قد قصد الى حلها واعتبرها طريقاً الى النجاة في الحياة الآخرة وللصلاح في الحياة الدنيا .

وعلى هذا فاليسار الذي نقصده في الاسلام هو الذي يتجه الى رفع الجور عن الفقراء والمستضعفين ، والمساواة بين ابناء المجتمع الواحد في الحقوق والواجبات ، أي باختصار هو النزعة الاشتراكية في الاسلام . اما اليمين الذي نقصده فهو الاتجاه المعارض لهذا ، وهو الذي سمح بالفروق الشاسعة بين أفراد المجتمع الاسلامي ، وهو الذي حارب ضد اليسار لتظل فئة قليلة تحتفظ بالثروة وتتحكم سياسياً واجتماعياً في غالبية المسلمين .

وسوف نستعمل « النزعة الاشتراكية » كثيراً هنا . وربما بدا للبعض انه استعمال في غير موضعه ، فالاشتراكية لا يمكن أن تقوم كاتجاه معارض الا بعد أن يمر المجتمع بمرحلة الصناعة ، حيث تتقدم أساليب الانتاج ووسائله لدرجة يصبح ممكنا معها ان توزع الثروة على أساس اشتراكي . بل ان هذا التحول يصبح أمراً محتوماً . اذ أن الانتاج نفسه يخرج من النطاق الفردي الى النطاق الجماعي ، بحيث يقوم تناقض حاد بين طريقة الانتاج الجماعية هذه وبين الاسلوب الفردي الذي تتوزع به الثروة .

ومعنى هذا أنه لا يمكن أن يوجد فكر اشتراكي قبل أن ينتقل أسلوب

الانتاج إلى الصناعة الآلية الواسعة : وهي الصناعة الحديثة ، وبذلك تتحدد بداية التفكير الاشتراكي ، أو ينبغي أن تتحدد منذ حدوث الانقلاب الصناعي اذ ولد معه وفي الاتجاه المعارض الفكر الاشتراكي كنقيض مباشر وفقاً للمنطق الجدلي الماركسي .

وكل هذا صحيح.... ولكن كلمة الاشتراكية استعملت قبل أن يكتب ماركس واستعملت في معان كثيرة بعيدة عن معناها الحديث ، على اننا نجد أن شرح الاستاذ كول لمعنى الاشتراكية في موسوعته الشهيرة «تاريخ الفكر الاشتراكي»يتفق مع ما نريد من استعمالها ونحن بصدد البحث عن الصراع بين اليمين واليسار في صدر الاسلام . فأصحاب الاتجاه الجماعي هم الاشتراكيون واصحاب الاتجاه الفردي هم غير الاشتراكيين .

اليسار والنزعة الاشتراكية :

والواقع ان الاشتراكيين في صدر الاسلام قد ضُربوا ، بل ان جميع الثورات ذات الاتجاه الاشتراكي « الجماعي » قد ضربت وربما كان هذا من الاسباب التي ستوجهنا الى مناقشة الاسس الاقتصادية في المجتمع الاسلامي حين وقوع هذه الثورات ، وهل كانت تتعارض بطبيعتها ونتيجة لظروف التطور التاريخي ، مع نجاح أي تطبيق للاشتراكية .

على ان المقصود هنا من استعمال كلمة اشتراكية ببساطة هو المعنى الجماعي ، أي العمل لصالح الاغلبية وتقديم صالح الجماعة على صالح الافراد ولم نقصد طبعاً النظم الجماعية او الشمولية التي تتعارض مع الاشتراكية بمفهومها الشائع .

اذن فاليسار الاسلامي الذي سنتحدث عنه هنا هو الاتجاه ذو النزعة الجماعية وهو ما يمكن ــ بناء على ما سبق ــ تسميته بالاتجاه الاشتراكي، في

حين يعني اليمين الاسلامي ، الاتجاه ذا النزعة الفردية الذي يبحث عن الصالح الفردي قبل ان يبحث عن الصالح الجماعي .

وبدهي اننا لن ندخل في جدل عقيم لنثبت ان الاتجاه الاشتراكي في صدر الاسلام هو بعينه الاتجاه الاشتراكي الحديث ، فهذا كلام لا يمت للعلم بصلة . فالمجتمعات الحديثة مختلفة في تركيبها وبنيانها عن المجتمع في صدر الاسلام . ولن نحاول – بالتالي – عصر النصوص لنفتعل تفسيرات تتفق مع خصوصية مشكلة من مشكلات عصرنا الحديث .

إنما الذي يعنينا من هذا كله هو المبادىء العامة التي تتفق والاتجاه نحو العدل الاجتماعي والمساواة والحض عليهما . وهو الأمر الذي لا يجادل احد في وجوده في الاسلام .

وليست هذه دراسة في تفسير المبادىء العامة للاسلام لأن لدينا منها الكثير ، انما هي محاولة للنظر الى الحضارة الاسلامية نظرة شاملة وخاصة فيما يسمى بالعالم العربي الآن .

فالواقع ان أي حضارة ينبغي ان تدرس ككل سواء استغرقت هذه الحضارة بضع مئات من السنين او عدة آلاف . وسواء مرت بأطوار اجتماعية مختلفة أو مرت بطور واحد ، وهو الأمر الذي اتجهت اليه كل الدراسات الحديثة في التاريخ . وكثير من الكتاب المحدثين ، بل كثرتهم الغالبة ينظرون إلى العالم الآن كتاريخ مجموعة من الحضارات لا حلقات في التطور الاجتماعي .

ولا يعني هذا أن النظر الى التاريخ كحلقات في التطور الاجتماعي خطأ صرف ، بل هو نظر جزئي يصح في حد ذاته ولكنه يبدو قلقاً اشد القلق حين نريد أن نتقصى عوامل التطور والتغيير إلى ابعد من تطور وسائل الانتاج المادية ، بل حين ننظر إلى أسباب سرعة التطور هنا وبطئها هناك ، ومن باب أولى حين نكشف وحدة عضوية لحضارة ما ونحاول فهمها او تفسيرها .

والحضارة الاسلامية وحدة عضوية باجماع الكتاب ، وكغيرها من الحضارات مرت بأطوار عديدة ، بل نستطيع ان نرى حلقات التطور التي مرت بها بوضوح .

لكننا حين نريد النظر إليها كحلقات في التطور ،لن نستطيع ذلك الا اذا نظرنا الى كل وحدة اقتصادية من وحداتها على حدة . قد نستطيع ان نرى حلقات التطور في المجتمع المصري او المجتمع العراقي او المجتمع الشامي ، فهذه الوحدات لم تمر بسلم التطور مروراً متوازياً ، ولكننا من الصعب أن ننظر إلى دار الاسلام عامة الا من وجهة نظر الحضارة الاسلامية ككل .

والعالم الاسلامي لم يحكم من مركز امبراطوري حتى نستطيع التركيز على هذا المركز ،اذ الواقع أن هذا لم يتحقق الا في قرنين او ثلاثة ثم لم يبق لمركز الامبراطورية الا الاسم ، بل انه قامت عدة دول مركزية داخل العالم الاسلامي ، كانت كلها اسلامية وتستمد اصولها الفكرية والحضارية من الاسلام .

اذن فالنظر الى الحضارة الاسلامية نظرة شاملة هو منهج هذه المحاولة في البحث ، وغايته الوحيدة هي اكتشاف عناصر الاستمرار في هذه الحضارة حتى هذه اللحظة الحاضرة .

ولسنا نريد أن تقف عجلة التاريخ لنعيدها إلى عهد الخلافة الاموية او العباسية ، فهذا يتنافى ومنطق الحوادث ، انما نحن نبحث عن الانتماء عن الأصل الذي ننطلق منه . وقد انطلقت الحضارة الرومانية من حضارة اليونان ... ثم انطلقت الحضارة الغربية من هذين الاصلين وكانت نقطة الوصل هي الحضارة العربية أو الحضارة الاسلامية . والحضارات الجديدة تتصل بأصل من الاصول العريقة التي تنتسب إليها ، ولكنها في نفس الوقت حين تتصدى لقيادة العالم وتتهيأ لها كل أسباب هذا التصدي تأخذ من التراث البشري القائم كله .

وكأن التحضر شعلة في سباق تنتقل من يد الى يد حاوية كل ما تملكه البشريه من قدرات على التقدم .

الا ان أي حضارة ظهرت تستند الى أصل من الأصول الوثيقةالصلة بها، والحضارة الأوربية رغم استفادتها الفائدة الكبرى من الحضارة العربية ترجع في اصلها الى اليونان ، فنجد كل ما كتبه اليونان من فن وفكر وكل ما ابتكره الرومان من نظم وقوانين وفكر وفن هو الاساس الذي استندت اليه .

وانتماء الحضارة الى أصل من الأصول هو وثيقة الميلاد الشرعية التي تبحث عنها كل حضارة ، وقد بدأ الاسلام نفسه من فكرة الحنيفية أو ديانة ابراهيم .

اذن فنحن اذ نبحث عن نسب لحضارة العرب لا نريد ان نرجع اربعة عشر قرناً الى وراء . بل نريد أن نكتشف استمرار هذه الحضارة فينا وننطلق من أصولها الجوهرية الى ميلاد حضارة حديثة لا تتوجه الينا فحسب بل الى العالم كله .

وسوف نكتشف مع هذه المحاولة في البحث – اننا نولد من جديد ، من صلب تلك الحضارة العظيمة . حضارة العرب واننا نحمل كل ما يحمله الوليد صحيح النسب من سمات اصوله .

وبعض الحضارات لا تموت . لانها تنسل حضارة جديدة ، والحضارة العربية من هذا النوع . وليس نسلها هو صورة طبق الأصل منها ، فمن البدهي ان هذا لا يحدث . انما هو ثمرة جديدة لنضال طويل وملاءمات عديدة مع كل تغير يقع في العالم الخارجي .

وحين قامت النهضة الأوربية كانت الفكرة التي تدفعها فكرة من طبيعتها، وسمة تدل على اصولها وصحة نسبها الى حضارة اليونان والرومان . فكرة الانسان الفرد في مواجهة الاله وفي مواجهة العالم . ولكنها بالطبع لم تكن صورة

طبق الأصل من حضارة الاغريق بل ثمرة جديدة ، عقلية تجريبية متحدية أخذت شكلها المتكامل في العقلية الليبرالية التي حققت كل ما حدث من تطورات واسعة المدى في العالم .

والحضارة لا تدفع بفكرة واحدة . ولكن مبدأ عاماً يفرض هيمنته عليها بعد صراعات عديدة مع مبادىء مغايرة .

لأن النزعة العقلية وان بدت هي جوهر التحول الذي حدث في المجتمعات الأوربية . كانت قائمة مع المجتمع الاسلامي قبل ان تسود في المجتمع الأوربي بقرون . ولكن الا يدعو للتساؤل ، لماذا لم ترج نزعة ابن رشد العقلية في الوقت الذي ظلت فيه نزعة الغزالي هي السائدة في المجتمع الاسلامي الى عهد قريب جداً .

ان الغزالي اعتبر « حجة الاسلام » واستمر تأثيره حتى العصور الحديثة وقبل سيادة المنهج العلمي في البحث . وهو استاذ ارستقراطي النزعة وأول مفكر اسلامي تصدى للفلسفة ليهدمها ، وقد لاقى تأييداً واسعاً من السلطات القائمة ...

والنزعة العقلية كانت موجودة اذن قبل الغزالي وكانت الفلسفة الاسلامية بوجه عام تعلي شأن العقل وتقيم نظرية المعرفة على أساس من المنطق . على أن هذه النزعة لم تمت حين شهر عليها الغزالي حملته الواسعة في كتابه الشهير « تهافت الفلاسفة » فقد تصدى له ابن رشد بعد ذلك بوقت غير قصير بكتابه الشهير « تهافت التهافت » .

على أن كتب ابن رشد احرقت في الميادين بأمر السلطان وصودرت من حائزيها . وصدرت أوامر بمعاقبة من يوجد لديه كتاب لابن رشد ولم يتقدمه في الاحتفال المهيب الذي أحرقت فيه كتب هذا الفيلسوف العظيم .

ومع ذلك انطلق ابن رشد الى النهضة الأوربية حيث صار حلقة الوصل بين أوربا الحديثة والاغريق الاقدمين .

وكثير من شراح الفلسفة يعتقدون أن منهج بيكون التجريبي مأخوذ ، من أفكار ابن رشد ، ولو أن رينان الفرنسي ومفكرين آخرين يعتقدون ان ابن رشد مجرد شارح ممتاز لارسطو وتلميذ بارع للقديس أوغسطين .

المهم في هذا كله ان فكرة جوهرية تسيطر على مجتمع ما وتوافق استعداده وتكون هي الفكرة الموائمة للتطور ، ومن هنا ينطلق ميلاد جديد لحضارة جديدة عبر القرون وتؤثر في العالم الإنساني خارج حدود مولد هذه الحضارة بالقدر الذي يتوفر لهذه الفكرة من قوة واصالة وامتداد وموافقة ومواءمة تامة لمتطلبات العصر .

والعالم الاسلامي عرف أكثر من فكرة من هذه الافكار ، عرف النزعة العقلية وعرف النزعة الحدسية والمزدرية بالعقل ، وعرف النزعة الفردية كما عرف النزعة الجماعية ، واصطخب في ثقافاته العديد من الافكار الجوهرية بعضها يذبل في فترة من الفترات أو عصر من العصور ثم لا يلبث ان يعود من جديد باطار مناسب من الفكر الحديث . وهو في كل هذا يمضي في اطار واحد هو الصراع بين الجمود والتقدم تحدده الظروف الاجتماعية والسياسية التي مر بها هذا المجتمع .

فليس المهم أن نجد في تراثنا النزعة العقلية مثلا لدى مفكر من المفكرين أو مجموعة من المفكرين ، بل المهم هو هيمنة هذه النزعة على المجتمع الاسلامي ككل وتحريكه بها الى غاياتها . ففي التراث الغربي القديم سوف نجد أيضاً عديداً من الأفكار الجوهرية تصطرع للغلبة ، ولكن الاستعداد لتحمل فكرة منها هو الذي يقرر اتجاه التاريخ في هذا المجتمع ، اما الى الجمود واما الى التقدم .

ولن نحاول أن نبحث عن الفكرة التي تسيطر على المجتمع العربي في عصرنا هذا ، فسوف نلتقي بها حين نعرض لصراع اليمين واليسار قبيل ظهور الاسلام ثم في فجره الممتلىء بالعنفوان والاصالة والثورية .

وسوف نلتقي بكل التيارات المتصارعة في اطار تلك الايديولوجية المتكاملة التي جاء بها الاسلام الى البشر اجمعين .

وهذه المحاولة للبحث والتي نقدم لها بهذه الكلمة ، لن تغفل العقيدة الدينية كما يحاول بعض الكتاب المحدثين أن يفعل ، فهي تؤمن بالارتباط الوثيق بين الرسالة السماوية وبين التطور الانساني . حقاً لن يكون في منهجها بحث في التوحيد والتعدد أو في قدم القرآن او حداثته الا بالقدر الذي يتصل بدلالة النظرية المفسرة لأي قضية من هذه القضايا وغيرها على نزعة التقدم والجمود . على أننا في هذا لن نمس الا رؤوس المسائل حيث أن اساس البحث هو التطور الاجتماعي لا التطور الديني .

ولهذا سوف يبدأ البحث بالمجتمع العربي الجـاهلي في مكة اساسـاً ، ثم في بلدان الجزيرة العربية الأخرى ، وعوامل الصراع المختلفة بين طبقات هذا المجتمع على اساس اقتصادي وفكري في نفس الوقت .

ولذلك يهمنا جداً الوصول الى تصوير حقيقي للمجتمع الجاهلي في مكة رغم أن النصوص التي تناولت هذه الحقيقة نادرة جداً .

فالدعوة الاسلامية لم تكن مجرد نحلة من النحل ، ولم تكن دعوه نبذ الاصنام او الاتجاه الى التوحيد فقط ، بل هي الى جانب هذا ثورة اجتماعية توفرت لها كل اسباب الثورة . وما كان أكثر الدعاة قبل ان ينزل الوحي على النبي — صلى الله عليه وسلم — كان في الجزيرة قسيسون ورهبان وداعون للرجوع إلى الحنيفية ولكن واحداً من هؤلاء لم يكن يمت الى النبوة بصلة ولا إلى القيادة الثورية .

وربما كانت الحقائق التي سيعرضها البحث غريبة شيئاً ما على ما تعودنا تلقيه ، ذلك ان بعض المفسرين — بنزعة دينية صرف — تجاهلوا كل ما قبل الاسلام . ولكننا احوج ما نكون إلى دراسة هذه الفترة دراسة تفصيلية لندرك

الاسلام بجانبه الثوري والديني. واغلب البحوث – حتى الحديث منها – يرجع اسباب ظهور الدعوة الاسلامية الى أوضاع جغرافية او اوضاع اجتماعية أو دينية يوجهها اعتقاد الباحث أنه كلما ابتعدت الدعوة عن محرك اجتماعي أو ديني مباشر كانت اقرب الى المعجزة ... وأنه كلما اختفت مبررات موضوعية لقيام الدعوة ، كان ذلك دليلا على انها معجزة من معجزات الله ... مع أن الدين الاسلامي في جوهره يقوم على المنطق والجدل العقلي والالزام بالحجة . ولذلك درجت الكتب التقليدية على وصف المجتمع الجاهلي بالتخلف والبدائية . في حين ان تقدم المجتمع وتراثه وثقافته لا يتنافى مع اعجاز الدعوة ومصدرها الالهي .

والحقيقة ان المجتمع في مكة كان مغايراً تماماً لاغلب ما ورد في هذه الكتب . كانت هناك بوادر حضارة ، وكانت هناك ثقافة ، وكانت هناك مدنية ، وفي النهاية كان هناك شعب ينطلق من حدوده الضيقة الى العالم الرحب .

وفي الاتجاه المقابل نجد بحوثاً حديثة اغلبها لمستشرقين ركزت على الجانب الجانب الاجتماعي في الدعوة الاسلامية ، وكأن الاسلام لم يكن الا ثورة اجتماعية البعض يحددها بأنها ثورة التجار لتأمين قوافلهم ولتوحيد الجزيرة ولفتح السبيل الى الحقائق . فالاسلام في جانبه الروحي ثورة انسانية شاملة ، بل هو ايديولوجية متكاملة بالمعنى الحديث لهذا الاصطلاح .

ومن هنا وجد هذا البحث أن من واجبه اعادة جمع الحقائق عن المجتمع الذي ظهر فيه الاسلام كقوة روحية ، وقوة اجتماعية ، واستخلاص نتائج موضوعية من هذه الحقائق .

وعندئذ سنكون قد امسكنا بالخيوط الاساسية التي انطلق منها الاسلام من حيث جانبه الديني وجانبه الاجتماعي ، وسوف نرى ان صراع اليمين واليسار فيه قد أخذ شكلا جديداً . وهي النقطة الهامة في هذا البحث ، لأن هذا

الصراع لم يتوقف لحظة واحدة ، ولعلنا سوف نلتقي بالاصول الثورية لثورتنا الحديثة منذ بدء الدعوة حتى الآن .

فالواقع انه منذ التحول الأموي على يدي معاوية والثورات الاجتماعية لم تتوقف. بعضها يضل الطريق وبعضها يحتفظ بأصالته ، والبعض الآخر يفسده خصومه ببراعة منقطعة النظير . ولكن هذه الثورات لم يكتب لها التوفيق إلى أن انحل المجتمع الاسلامي وتمزق وتراجعت الحضارة الاسلامية لتتسلم منها الشعلة حضارة الغرب الحديثة .

وقد تعودنا ان نعرض للتاريخ الحديث في مصر بمعزل عن الاطار العام للمجتمع العربي . ولذلك فنسب الثورة التي نعيشها الآن يتصل بالحرية الوطنية اكثر من اتصاله بالحركة القومية ، في حين اننا نكتشف أشياء كثيرة وجديدة في معنى هذه الثورة ونسبها عندما نصلها بنسبها الأكبر وهو الحضارة الاسلامية وصراع اليمين واليسار في تاريخ هذه الحضارة .

وفي الحركة الوطنية المصرية بدا أنها بحثت عن نسبها في الحضارة الفرعونية القديمة ، خاصة وقد صاحب الكفاح الوطني ظهور الكشوفات العلمية للآثار المصرية القديمة ، وكان من الطبيعي أن تجد الحركة الوطنية في نسبها إلى تلك الحضارة العظيمة قوة وسندا .

هذا التحول أثر على دراسة التاريخ الحديث تأثيراً كبيراً ، وكاد أن يعزل الحركة الوطنية المصرية عن أصلها العربي ، وبدا للبعض ان يتحدث عن قومية مصرية مستقلة تماماً عن القومية العربية في حين ان هذا البعض نفسه حين يتناول عرضاً تاريخياً شاملا لمصر يقف حائراً عند التحول التام الذي طرأ بعد الفتح العربي لها . ومهما يحاول المؤرخ ان يخلق من صلات بين مصر الحديثة والحضارة الفرعونية فانه لا يجد له سنداً او دليلا، فقد احتضرت الحضارة الفرعونية وماتت منذ وقت مبكر وقبل الفتح الروماني ، وظلت مصر في مرحلة

التحول والقلق طوال العصر المسيحي حتى هيمنت الحضارة الاسلامية العربية على المجتمع المصري ، بل غيرته تغييراً انثروبولوجياً أيضاً .

وقد وجد المؤرخ الانجليزي الكبير توينبي أن الحضارة الفرعونية ماتت . وعبر عن دهشته لأنه لم يجد لها بعد ذلك أي امتداد في العصور الحديثة لدرجة انه اعتبرها ظاهرة وحيدة .

وايضاً اثر على دراسة التاريخ الحديث ، المنحى الغربي الذي تأثر به أغلب المثقفين ، فأرادوا خلع المجتمع المصري من أصوله العربية والاتجاه إلى الغرب بحيث ظهر من يقول من الاساتذة الكبار اننا ننتمي إلى حضارة البحر الابيض في كل العصور .

ولن نقرر نتائج في هذه المقدمة . بل سنستخلص هذه النتائج من خلال عرض تاريخ الحضارة الاسلامية ونشوئها ثم استمرارها أو وفاتها .

ومرة أخرى فهذا البحث لا يهدف الى تقرير او اثبات قضية مسبقة . وان كان هدفه الاساسي هو البحث عن النسب الحقيقي للثورة العربية الطليعية التي بدأت في مصر والتي تشير الى انطلاق حضاري جديد واسع المدى .

حقيقة مكة قبل الإسلام

في أول الفصل الثاني من كتاب « فجر الاسلام » للاستاذ أحمد أمين كتب يقول :

« شاع بين الناس ان العرب في جاهليتهم كانت أمـــة منعزلة عن العالم . لا تتصل بغيرها أي اتصال ، وأن الصحراء من جانب والبحر من جانب حصراها وجعلاها منقطعة عمن حولها ، لا تتصل بهم في مادة ولا تقتبس منهم ادباً ولا تهذيباً . والحق ان هذه فكرة خاطئة وأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم مادياً وأدبياً وان كان هذا الاتصال اضعف مما كان بين الأمم المتحضرة في ذلك العهد ، نظراً لموقعها الجغرافي ولحالتها الاجتماعية » .

ورغم مضي اكثر من ثلاثين عاماً على كتابة هذا الكلام فلم يزل الشائع بين الناس أن العرب كانت أمة متخلفة تعيش حياة بدوية خشنة ابعد ما تكون عن الحضارة والاستقرار .

ومع ذلك فاغلب الباحثين العرب والمستشرقين بذلوا جهوداً علمية كبيرة ليرسموا صورة صادقة للحياة العربية قبل الاسلام ، إذ لم يكن من المعقول بداهة ، أن مجموعة من القبائل البدوية تتحول فجأة الى أعظم امبراطورية في عصرها ، فتقوض الامبراطورية الفارسية وتوشك أن تقضي على الامبراطورية الرومانية قضاء نهائياً .

ولا يقتصر الامر على القوة العسكرية ، بل يتخطى ذلك الى القيادة الفكرية والعلمية للعالم كله . حيث تظهر حضارة جديدة تمد اشعاعاتها في كل مكان وفي كل القارات .

وحدث خطير كهذا لا يمكن أن يقع دون مقدمات . ودون كفاءة واستعداد وهكذا بدأت الدراسات العلمية الحديثة تفتش عن الأسس الحضارية التي انطلقت منها هذه الحضارة الكبيرة . تبحث في الجوانب الاقتصادية في الجزيرة العربية قبل الاسلام ، تبحث في الديانات القائمة وفي الصراعات السياسية والتيارات الفكرية حتى تجد القاعدة التي انطلقت منها الحضارة الجديدة .

ومع أن البحث في العصر الجاهلي ، وخاصة قبيل الاسلام ، كان محفوفاً بالمصاعب ، اذ قضى الدين الجديد على كل الآثار القديمة الا أن الباحثين وخاصة المستشرقين لم ييأسوا ، وخاضوا في هذا السبيل أهوالا ... استشهد فيها بعضهم ولكنها حققت نتائج عظيمة أنارت الطريق في هذا الظلام الدامي .

ارتحل هؤلاء العلماء إلى الجزيرة العربية جنوبها وشمالها . وصوروا النقوش ودرسوا الآثار ، وتعرضوا للموت والقتل ، فضلا عن الغوص في كتب الأساتذة الاقدمين الذين أرخوا للحياة في الجزيرة العربية يحققونها ويمحصونها .

وبعض هؤلاء العلماء سواء من المكتشفين أو اللهارسين كانوا يتمتعون بموضوعية العلم ، والبعض الآخر لم يستطع التخلص تماماً من هوى عقائده الموروثة ، ولكنهم على أي حال بذلوا في هذا السبيل اكثر مما بذلنا ، واليهم يرجع الفضل في الصورة التي نستطيع أن نقدمها الآن للحياة في الجزيرة العربية قبل الاسلام .

مكة قبيل الاسلام ـ الحالة الاقتصادية :

بسبب عدة تطورات لا يهمنا في هذا البحث تتبعها صارت مكة من المراكز التجارية في عصرها . كانت هي حلقة الاتصال بين اليمن والحبشة وفارس وبيزنطة ، وكانت بضائع ومنتجات هذه الدول تنتقل بينها بواسطة قوافل عربية يبلغ عددها الفي بعير محملة بالبضائع النفيسة ، ومحروسة بقوة كبيرة ، يقودها ادلاء ويصحبها خبراء في التجارة وتراجمة ومنظمون . وكانت قيمة هذه القوافل تبلغ مائة ألف دينار ، وفي بعض التقديرات بلغ ما يشتريه العالم الروماني من طيوب (١) بلاد العرب والفرس والصين ما قيمته مائة مليون من الدراهم .

« ووصل المكيون قبل الاسلام ـ عندما كان العداء بين الفرس والروم بالغاً منتهاه ـ إلى درجة عظيمة في التجارة . وكان على تجارة مكة اعتماد الروم في كثير من شئونهم ، حتى فيما يترفهون به ـ كالحرير ـ وحتى استظهر بعض مؤرخي الافرنج انه كان في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشئون التجارية والتجسس على احوال العرب ، كذلك كان فيها احابيش ينظرون في مصالح قومهم التجارية » .

ومعنى هذا أنه كان للروم وللحبشة ولفارس ولليمن ، قناصل يقومون على شئون التجارة لبلادهم . وينظمون العمل التجاري في هذه العاصمة التجارية التي شبهت بالبندقية في عصرها الذهبي .

ويخطىء من يظن أن المكيين كانوا يتعاملون في التجارة فقط ؛ فقد كانت لهم أراضٍ في الطائف تزرع فيها المحاصيل المختلفة ، وفي مقدمتها العنب حيث كان يصدر منه كل عام ثلاثمائة راحلة من الزبيب . كما كانت في الطائف

---

(١) أسواق العرب : سعيد الافغاني .

صناعة هامة جداً هي صناعة الجلود اشتهرت في كل مكان وكانت من الصادرات الاساسية الى الحبشة وفارس وبيزنطة .

ويقول الباحث الانجليزي مونتجومري وات « أنه كانت هناك صناعات محلية صغيرة في الحجاز ، غالباً ما كانت لاشباع حاجات البدو وسكان المدن، فقد سمعنا مثلا عن الجلود التي كانت تصدر من الطائف » (١) ... الخ .

ويقول الهمذاني : « الطائف مدينة جاهلية ، وهي بلد الدباغ ، يدبغ بها الأهب الطائفية المعروكة » .

وفي سيرة ابن هشام انه « كان من اعجب ما يأتي النجاشي من مكة الأدم». ومن البديهي انه لكي تقوم صناعة للجلود تصدر الى الخارج وتحرز شهرة عالمية في حينها ، لا بد أن تكون هناك مصانع على قدر من الكفاية .

وقد تطورت التجارة في مكة الى درجة عالية من التقدم حتى عقدت قريش معاهدات تجارية مع حكومات الروم والفرس والاحباش ، هي التي عرفت بالايلاف(٢) » والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم « لايلاف قريش ايلافهم : رحلة الشتاء والصيف » . واذ صارت لمكة هذه الاهمية ، مما هدد المكانة التجارية والاقتصادية للمراكز التي تسيطر عليها الحبشة بذلت جهود جبارة من جانب ملوك الحبشة لبناء هيكل في اليمن ينافس الكعبة في مكة ويجمع العرب حوله ، فينتقل النشاط التجاري اليها .

ولكن هذا الهيكل بني ولم يحقق أغراضه فاضطر أبرهة أن يقود جيشاً كبيراً

---

(١) محمد في مكة : مونتجمري وات .

(٢) انظر البحث الجديد للاستاذ سعيد الافغاني في كتاب اسواق العرب في تفسير معنى كلمة ايلاف وتحقيقها .

متجهاً إلى مكة ليهدم الكعبة ويحتل العاصمة التجارية ويقضي على نفوذها . وفي الوقت الذي ترك فيه أهل مكة مدينتهم معتصمين في الجبل يبتهلون الى الله أن ينقذهم ، تفشى وباء الجدري في صفوف جيش ابرهة وتساقط جنوده صرعى . ولم يتمكن من هدم الكعبة ومن غزو مكة . واضطر الى العودة خاسراً .

وهناك محاولات أخرى سابقة لقياصرة الروم ترمي إلى نفس الغرض، ولكنها كلها باءت بالفشل لاسباب جغرافية وحربية .

وانتهى امر هذه المحاولات جميعها الى التسليم لمكة بمكانتها التجارية وعقدت معها الحكومات المختلفة معاهدات لتأمين التجارة وتحديد الضرائب الجمركية وطرق التعامل المختلفة . ولم تكن هذه المعاهدات مجرد اتفاقات شفوية ، بل كانت معاهدات رسمية مكتوبة وموقعاً عليها من السلطات العليا المسئولة (١) .

واذا كانت مكة تتعامل مع البلاد المختلفة بقوانينها ورسومها الجمركية فانها هي كانت مركزاً تجارياً حراً تباع فيها السلع المختلفة كأي منطقة حرة في العصر الحديث :وهذا ايضاً كان سبباً رئيسياً في أن جميع المعاملات التجارية كانت تعقد فيها باعتبارها مركز التجارة في المنطقة ، وهي بهذه الصورة ايضاً أشبه بالبورصة تحدد فيها الاسعار دولياً . وتتم فيها المضاربات وتتبادل السلع اسمياً بين التجار والمضاربين وهي بعد في المخازن او في الطريق حتى ان الاسلام حين جاء انكر هذه المضاربات التي يتحمل غرمها المستهلك الفقير فنهى النبي عنها وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تلقوا الركبان ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض . ولا تناجشوا ولا يبع حاضر لباد » .

---

(١) انظر المرجع السابق .

بل ان تجار مكة عرفوا الاحتكار ، فكان التاجر يشتري كل المعروض من سلعة معينة فيحتكرها ، ويحدد السعر الذي يراه ... وهذا ايضاً مما حاربه الاسلام .

والى جانب ذلك كانت في مكة اعمال مصرفية واسعة النطاق . اذ كان توظيف المال عملية سائدة عن طريق القروض بالفائدة وبضمانات مختلفة كان بعضها يصل إلى رهن الزوجة او الولد . وكانت هناك فوائد بسيطة وفوائد مركبة .

وبلغت هذه الاعمال المصرفية درجة من التوسع حتى أن كبار التجار ، كانوا يتعاملون فيها جميعاً . وسوف تعجب اذا علمنا أن العباس بن عبد المطلب وخالد بن الوليد وعثمان بن عفان (١) فضلاً عن ابي سفيان بن حرب وغيرهم كانوا من كبار المتعاملين في الأعمال المصرفية .

وغير الاعمال المصرفية كانت تجارة العبيد منتشرة في مكة ، حيث كان يجلب اليها العبيد من كل مكان يأتي بهم تجار عرب وغير عرب ليبيعوهم في مكة ومنها ينتقلون الى أسواق أخرى . وقد تعجب اذا علمت ان والدة عمرو ابن العاص بيعت كأمه في عكاظ للعاص بن وائل والد عمرو .

كل هذا النشاط يستطيع أن يعطينا صورة عن الحياة في مكة ودرجة تقدمها ، وبالتالي عن المجتمع الذي ــ تشكله .

التكوين الطبقي في مكة :

نستطيع أن نرى من هذا العرض لاوجه النشاط الاقتصادي المختلفة في مكة صورة للمجتمع وطبقاته ...

---

(١) أسواق العرب .

رجال الدين :

المراجع التي تحت ايدينا لا تكاد تحقق شيئاً ذا بال بالنسبة لوضع رجال الدين . كل ما نعثر عليه في كتب السيرة هو سدانة الكعبة ، ويشعر المرء وهو يحاول استقراء الوقائع انه ليست هناك طبقة بالمعنى المفهوم من رجال الدين . وليس في كتب المستشرقين ما يؤكد وجود طبقة مستقلة لها مصلحة خاصة في رعاية الكعبة والقيام على شعائرها والاستفادة من الاضاحي والقرابين او المال الذي يوهب للكعبة . فاهتمام المستشرقين من امثال هومل وورود كاناكيس وجرومان ونور اندريا ومونتجومري وات وغيرهم محصور في الديانة في العصر الجاهلي وشعائرها وأصولها ، اما رجال الدين انفسهم ودورهم في المجتمع المكي والعربي بوجه عام فلا تكاد توجد دراسة ، أو على الاصح لم نعثر على دراسة حول هذا الموضوع .

ومن المؤكد ان الكهانة عرفت في المجتمع المكي ، فمن الطبيعي أن يوجد بمقر الكعبة رجال او نساء يهتمون بالشعائر ويفهمون اساليب التقرب الى الآلهة ويتنبأون بالغيب ، ويكونون همزة الوصل بين البشر والآلهة .

ونحن نعرف القصص الكثيرة عن العرافات والكهان ، ونعرف بوجه خاص تلك القصة التي نذر فيها عبد المطلب لآلهة الكعبة أن يذبح أحد ابنائه اذا بلغ مبلغ الرجال وكانوا عشرة يمنعونه ويحمونه . وانه جمع أولاده ودخل بهم على هبل واجرى بينهم القرعة فوقعت على اصغر ابنائه عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم . وحين هم عبد المطلب بذبح ولده منعه بنوه وأصحابه واقترحوا أن يعرضوا الأمر على عرافة يثرب .

وبقية القصة معروفة ... فهل معنى ذلك أنه لم يكن في الكعبة عرافون وبالتالي لم يكن هناك رجال دين يقومون بالوساطة بين الآلهة والبشر ... !

يبدو ذلك ، وان كان من المعروف انه كانت هناك مكوس تفرض على

الحجاج لمن يقوم بشئون الحج ، وهو الأمر الذي نراه حتى الآن في مكة لطائفة المطوفين وغيرهم .

وعلى كل حال يبدو أن قريشاً كلها كانت لها قداسة رجال الدين بالنسبة لسائر العرب . ولم يكن هناك فصل بين الدين والتجارة ، أو لم تكن هناك طائفة أو أسرة تنفرد بسدانة الكعبة وتستمد من هذه السدانة سلطة على سائر أهل قريش . وان كنا نعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم من سلالة هؤلاء السدنة من قريش .

وعلى ذلك فلا نستطيع القطع بوجود طبقة في المجتمع المكي من الممكن أن نطلق عليها طبقة رجال الدين ، تلعب في الحياة السياسية والاقتصادية دوراً ما ، كالذي لعبته مثيلاتها في المجتمعات المتحضرة الأخرى .

كبار التجار والملاك :

أما ان التجار الكبار يكونون طبقة ذات مصالح مشتركة تندفع في صراعاتها وفي اهدافها تحت تأثير هذه المصالح فأمر ثابت في كل المراجع . ولقد كان كبار التجار يشتغلون في التجارة وفي الأعمال المصرفية ، وفي استثمار الأراضي في يثرب ، وفي الصناعات المحلية المختلفة ، سواء في مكة او في يثرب . اذ ثبت ان للعباس بن عبد المطلب بستاناً في يثرب ، ومن البديهي أن يكون لغيره من أهل قريش مصنع من تلك المصانع الصغيرة التي كانت تعمل في الجلود وفي تجفيف العنب أو في غيره من تلك الصناعات المنتشرة في المنطقة .

وكانت لهذه الطبقة السيطرة الكاملة على المجتمع المكي ، وسوف نرى أن الحكومة في مكة أو « الملأ » كما كان يسمى ، أو مجلس السيناتو كما يسميه مونتجومري وات يتشكل من كبار التجار هؤلاء . فكان القضاء فيهم وكانت السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية فيهم ، أي انهم يسيطرون تماماً من حيث التشريع والحكم والقضاء على المجتمع المكي كله تجمعهم مصالحهم المشتركة .

صغار التجار :

وهؤلاء كانوا كثرة غالبة يتاجرون في عروض بسيطة ويقترضون لمباشرة اعمالهم من كبار الملاك . ويزاولون بعض الحرف الصغيرة او يرعون اغناماً يملكونها أو يديرون الحوانيت والفنادق . أو يسهمون باسهم بسيطة في قافلة من قوافل كبار التجار ،وهم في ذلك اشبه بصغار المساهمين في شركات المساهمة المعروفة في عصرنا الحديث . او ينشئون المشارب وبيوت الدعارة ، وكانت هذه عادة شائعة ، اذ يسخر الرجل بعض جواريه للعمل في البغاء ويتكسب من عملهن هذا . وهي تجارة كانت شائعة ومعترفاً بها حتى جاء الاسلام فوقف منها موقفاً متشدداً حتى أنه نزل فيها القرآن (١) : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرههن فان الله بعد اكراههن غفور رحيم » .

ويذكر المفسرون في صدد هذه الآية الكريمة انه كانت لعبد الله بن ابي ابن سلول جاريتان يقال لهما مسيكة ومعاذة ؛ وكان يكرههما على الزنا لضريبة يأخذها منهما ، فلما جاء الاسلام قالت معاذة لمسيكة : ان هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين : فإن يك خيراً فقد استكثرنا منه ، وان يك شراً فقد آن لنا ان ندعه » لكن عبد الله هذا قال لهما : « ارجعا فازنيا » فقالتا « والله لا نفعل . قد جاء الاسلام وحرم الزنا » فأتتا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكتا اليه امرهما فانزل الله هذه الآية (١) .

يندرج في هذه الطبقة اذن حرف كثيرة ، ولكن افرادها جميعاً يتفقون في ملكية رأس مال معين ، سواء كان عقاراً أو ابلا أو مالا أو جواري . يوظفون أموالهم هذه تحت سلطة القوانين العرفية السائدة .

---

(١) سورة النور .

المعـــدمون :

وهؤلاء هم من لا يملكون شيئاً الا قوة عملهم فيوظفونها لحساب الغير . أما في حراسة القوافل او في ادارة القافلة او في فرق الكشافة التي تسبق القوافل تستكشف الطريق او في غير ذلك من الأعمال التي يؤجر عليهاصاحبها بمقابل. وهؤلاء كانوا كثرة لأن كثيراً منهم لم يجدوا قوت يومهم ، وكانت اذا اشتدت بهم المغبة انتحوا مكاناً بعيداً وجلسوا في انتظار موتهم جوعاً الا اذا ادركهم محسن بطعام أو بعمل مأجور .

فقد كان الى جانب هذا الثراء الشديد فقر شديد ، ففي الوقت الذي كانت تحمل فيه عير ابي سفيان بن حرب سلعاً بخمسين الف دينار كانت المجاعة تلتهم اعداداً طائلة من ابناء قريش ، ويذكر المؤرخون كيف أن هاشماً عندما حلت المجاعة سافر فأحضر خبزاً وسمناً وابلا ، فهشم الخبز وعجنه بالسمن ونحر الابل واطعم المعدمين في مائدة هائلة يتحدث عنها المؤرخون حتى الآن ، بل يشتقون من هشمه للخبز تسميته الهاشم .

وفي هذه المجاعات المتتالية كان اثرياء قريش يختزنون حاجتهم من الطعام ومن المؤكد أن من يملك هذا القدرالهائلمن المال وهذهالخبرةالدوليةفيالتجارة يستطيع أن ينظم ورود المؤن والأطعمة بما لا يعرض الأمة للمجاعة الا اذا كان من تصيبهم المجاعة لا يملكون ما يشترون به ما يحتاجون اليه من الطعام . وقصص الاعتزال للموت جوعاً ترد كثيراً في كتبالسيرة وكتب الادب القديم .

ومع أن مكة كانتسوقاً دائمة، الا أن أهم عملياتها هي الرحلات التجارية التي اشتهرت منها رحلتا الشتاء والصيف . ويبدو ان البطالة كانت شائعة لقلة حاجة التجارة الى الأيدي العاملة . ولهذا انتشرت الصعلكة حيث ينشق المعدم عن القبيلة ويكمن للقوافل فينقض عليها ويستولي على ما فيها .

ومن هذه الطبقة ينتقل الابناء والبنات او الزوجات من الحرية الى العبودية اذ يعجزون عن رد القروض التي يقترضونها في مواعيدها .

وهذه واقعة تصور كيف ينتقل الحر الى العبودية دون سبي أو أسر(من سيرة ابن هشام ونقلا عن كتاب الاستاذ سعيد الافغاني . اسواق العرب) ...

جاء في السيرة : « ان ابا نائلة سلطان بن سلامه لقي احد اشراف اليهود واغنيائهم . كعب بن الاشراف وكان أخاه من الرضاعة ، فقال له : اني قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك وتحسن في ذلك » . فقال كعب : اترهنوني نساءكم ؟ قال : كيف نرهنك نساءنا وأنت أشيب أهل يثرب وأعطرهم ؟ قال كعب « ترهنونني ابناءكم ؟ » إلى آخر الحديث . . . كان هذا يحدث في مكة كما يحدث في يثرب .

فمع ان أبا نائلة عرض بعد ذلك أن يرهن حلقته . وهي عدة الحرب الا ان المرابي اليهودي رفض الا ان يرهن ابناءه .

ولم يكن هذا التشدد في طلب الضمانات مقصورا على اليهود وحدهم بل كان اسلوب التعامل والعرف السائد في هذا المجتمع الوافر الثراء الذي يحكمه التجار .

وطبقة المعدمين هذه هي التي كانت تمثل القوة المضادة والطرف الثاني في الصراع الطبقي الذي نشب في مكة ، وفي سائر المدن العربية قبيل الاسلام. والقصة التي رويناها هنا وقعت في المدينة وابان الدعوة الاسلامية .

العبيد :

وهناك طبقة رابعة هي طبقة العبيد .

وفي المجتمع المكي والعربي بوجه عام لا يشكل العبيد طبقة بالمعنى العلمي

كما في المجتمعات الزراعية مثلا . اذ ان حاجة الانتاج إلى العبيد هنا كانت نادرة واغلب العبيد كانوا إما يعملون في الخدمة أو في الرعي أو في الزراعة القليلة في بعض المناطق الزراعية أو في خدمة قوافل السفر واحيانا في الحراسة والدفاع عن القافلة .

ولم نتمكن من العثور على احصائية تقريبية عن عدد العبيد في مكة أو يثرب أو المدينة اذ يبدو انهم كانوا يستعملون على نطاق ضيق ، وكان ورودهم على مكة كالبضاعة التّرانزيت ، فقد رأينا ان الرجل المعدم لا يجد قوت يومه وهو يعرض قوة عمله . ومن البديهي انه اذا بلغ مستوى العمالة هذا الحد انعدمت الغاية من استغلال العبد ولم يعد الاحتفاظ به مجلبة لأي منفعة بلعلى العكس قد يكون فيه الضرر . وقد رأيت ان بعض العرب يستعملون جواريهم في البغاء كمصدر من مصادر الربح وربما لهذا السبب يحتفظون بالجواري .

ومع ذلك فقد كان العبيد حلفاء للمعدمين ، بل ان المعدمين مصدر يمد المجتمع بطائفة جديدة من العبيد إلى جانب الشراء والسبي والأسر .

وسوف نرى كيف انضم عدد كبير من العبيد إلى الاسلام في بواكير الدعوة بل كيف كان منهم مقاتلون اشداء ومؤمنون ذوو خطر وصل بعضهم إلى حد الرياسة حتّى صار يحكم مكان كسرى فارس ، مثل سلمان الفارسي الذي صار عاملا على المدائن في عهد عمر بن الخطاب (١) .

السلطة السياسية في مكة :

من المشكوك فيه ان للنظام القبلي تأثيره في حكم مكة ، فلم تكن الرياسة القبلية وحدها هي الحجر الاساسي ليتصدر زعيم القبيلة السلطة في الحكم،اذ

---

(١) لوي ماسينسون : سلمان الفارسي والبواكير الروحية للاسلام،ترجمه عبد الرحمن بدوي .

كانت ملكية المال هي العامل المحوري الذي تتوزع على اساسه السلطة وقد رأينا ان اعداداً كبيرة من القرشيين يموتون جوعا دون ان تمدهم القبيلة او أثرياؤها بشيء يقيم اودهم . وفي السيرة سوف نجد ان ابا طالب عم النبي يرسل عليا إلى محمد « صلعم » ليتربى في بيته بسبب فقره الشديد ، وهو نفس الامر الذي حدث للنبي في صباه عندما كفله عمه .

ان التضامن القبلي لم يكن له وجود حقيقي الا في « المنافرة » وهي مباراة بين رجلين في الاسواق على ايهم اعز نفرا . كما يظهر هذا التضامن عند الحرب والمنازعات بين الرياسات . اما في الناحية الاقتصادية فيبدو النظام القبلي عديم الاثر .

ويقرر مونتجمري وات وهو يقارن بين مركز ابي سفيان في مكة ومركز بيركليس في اثينا ، وبالتالي بين الديمقراطية العربية والديمقراطية الاثينية ، ان العرب كانوا يعرفون هذه الديمقراطية وان كانت اقل احتضانا لفكرة المساواة من ديمقراطية الاغريق ، فيقول من الطريف ان نقارن بين مركز ابي سفيان في مكة بمركز بيركليس باثينا ، فان الديمقراطية العربية كانت اقل احتضانا من فكر المساواة من الاثينية . فكل فرد من عشائر مكة يعد واحدا لا اكثر . ولكن على نحو ما وجد العرب طريقة لتقدير من يكونون من الافراد المرموقين في العشيرة ، والذين يجب ان يحضروا اجتماعات الملأ (١) .

ويستطرد مونتجمري وات : وملأ مكة كان أعقل وأكثر شعورا بالمسئولية من مجلس (اكليميا) الاثيني . ونتيجة لذلك فان قرارات ملأ مكة تعمل استنادا إلى قوة فضائل الرجال وخططهم ، لا على البلاغة الخطابية التي تستطيع ان تجعل الشر يظهر بمظهر الخير . ومن جهة اخرى فان الاثينيين في احسن احوالهم ، لم يراعوا المبادىء الاخلاقية فيوافقوا على رأي رجل انه اساسا رجل

---

(١) مونتجمري وات : محمد في مكة ، طبعة جامعة اكسفورد ١٩٥٣ .

شريف يتمتع بسمعة طيبة ، بل على العكس كان اهل مكة اكثر غيرة على ان يمتاز « الرجل المختار للقيادة » على اساس من المهارة العملية والكفاءة الشخصية .

فقيمة الرجل في مكة تقررها فضائل شخصية وامكانيات ذاتية ، في مقدمتها القوة المالية ، والفرد هنا لا يعتبر عضوا في قبيلة ولا يعامل على هذا الاساس — مهما صغر شأنه — بل يعامل كفرد فقط ويقدر ما يملك من امكانيات — وهي صورة مختلفة تماما عن الوضع في المجتمع القبلي ومتقدمة إلى أبعد مدى .

وسوف نرى ان « وات » يوافق على رأي «لامانس» في ان قريشا كان لها عدد من العبيد السود يستخدمونهم في الحرب عندما تستدعي الحاجة . وهذه حقيقة تشير إلى وهن الرباط القبلي وعدم الحاجة اليه عند وقوع الشدة . بل اننا سوف نرى ان كثيرين من اسرة محمد صلى الله عليه وسلم عندما اصطدمت مصالحهم بالدعوة الجديدة ، بل من اول لحظة الجهر بالدعوة ، تحالفوا ضده دفاعا عن مصالحهم .

ولم ترتكز قوة قريش الحربية على العصبية القبلية بل على المحالفات مع قبائل اخرى تربطهم بها المصالح التجارية ، بحيث تمكنوا من ان يكونوا اتحادا قويا في اجزاء مختلفة من الجزيرة العربية على اساس مشاريعهم التجارية وحدها (١) .

ومع ذلك فنحن لا نستطيع ان ننكر رابطة الدم واواصر القربى اذ كان لها دور غير منكور في كثير من الخصومات حتى عند قيام الدعوة إذ انتهى الامر إلى الحصار الشديد للهاشميين بالوثيقة الشهيرة « الصحيفة » التي اتفق فيها المحاصرون على الا يتزاوجوا او يشتروا او يبيعوا للهاشميين شيئا . ولكن حتى هذا الحلف لم يتكون على اساس قبلي اذ حركته المصلحة والنزاع على السلطة بعد ان بدا ان النبي ليس داعيا لدين جديد فحسب، بل رجل دولة يريد

---

(١) نفس المرجع السابق .

ان يحيي نزاعا قديما على السلطة بين الهاشميين والامويين خسرت فيه هاشم وربحت فيه امية واحلافها. وبدا أن محمداً يسترجع السلطة الضائعة للهاشميين وراء الدعوة لدينه الجديد (١) .

اذاً فالنظام القبلي ليس هو المحرك الاساسي للصراعات بين القوى المختلفة في مكة، انما المحرك الحقيقي هو الثروة والسلطة وقيمة الفرد تتحدد لا بتبعيته لقبيلة قوية ، بل بما يملك من مال وما يحوز من سلطة .

نظام الحكم في مكة :

يشبه «لامنس» نظام الحكم في مكة بجمهوريتي البندقية وقرطاجة حيث يسيطر رجال المال على الحكم فيهما . ونستطيع أن نبين هيئة هـذه الحكومة والوظائف التي تمارسها والاشخاص الذين يتولونها . . .

سوف نجد حقا ان القبائل ممثلة فيها ، الامر الذي يوهم بأن الاساس القبلي هو دعامتها الوحيدة ، ولكن الحقيقة ان كبار رجال المال هم دعامتها الوحيدة ، وهم الذين يسيطرون عليها باعتبارهم هذا لا باعتبارهم ممثلين لقبائل .

يقول ابن عبد ربه (٢) : « من انتهى اليه الشرف من قريش في الجاهلية فوصله بالاسلام عشرة رهط من عشرة ابطن وهم هاشم وامية ونوفل وعبد الدار واسد وتميم ومخزوم وعدي وجمح وسهم .

١ ــ فكان من هاشم : العباس بن عبد المطلب ، يسقي الحجيج في الجاهلية وبقي له ذلك في الاسلام (تقدم ان العباس كان من كبار الملاك

(١) سنرجع لهذه النقطة عند موضعها من البحث .
(٢) العقد الفريد : الجزء الثالث .

والتجار في قريش ، وكان له إلى جوار تجارته الواسعة بستان في الطائف ، ومن الطريف انه ظل يرفض الاسلام وهو عم النبي حتى وفاته رغم ما تذكره كتب السيرة من نصرته لابن اخيه في اكثر من مناسبة) .

والسقاية ليست عملا هينا كما يبدو لاول وهلة،لان الماء كان في مرتبة الطعام اهمية لقلته في مكة ولضرورة تنظيم توزيعه ، كما كان تفرض عليه جباية وتخضع لاشراف وتنظيم على جانب كبير من الاهمية.واذا كانت للماء اهميته في بلاد الأنهار بالنسبة للزراعة بحيث تديره وزارة هامة في الدول الحديثة الاهمية ، فعليه تتوقف حياة البلد فضلا عن زوارها والوافدين عليها من اصحاب المصالح .

٢ ــ ومن بني أمية : أبو سفيان بن حرب ، وكانت عنده العقاب راية قريش واذا كانت عند رجل اخرجها اذاحميت الحرب فاذا اجتمعت قريش على احد اعطوه العقاب ، وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه .

٣ ــ ومن بني نوفل : الحارث بن عامر وكانت اليه الرفادة .

٤ ــ ومن بني عبد الدار : عثمان بن طلحة كان اليه اللواء والسدانة مع الحجابة والندوة (١) .

٥ ــ ومن بني أسد : يزيد بن زمعة بن الاسود وكانت اليه المشورة . وذلك ان قريشا لا تجتمع على امر حتى يعرضوه عليه فان وافقه والا هم عليه ، والا تخير وكانوا له اعوانا .

---

(١) لسوف نشرح بتفصيل هذه المناصب و أهميتها بعد السرد .

٦ – ومن بني تيم : ابو بكر الصديق . وكانت اليه في الجاهلية الاشناق وهي الديات والغرم . فكان إذا احتمل شيئا من الدماء فسأل فيه قريشا صدقوه وامضوا حمالة من نهض معه وان – احتملها غيره خذلوه .

٧ – ومن بني مخزوم : خالد بن الوليد وكانت اليه القبة والأعنة فأما القبة فانهم كانوا يضربونها ثم يجمعون اليها ما يجهزون به الجيش واما الأعنة فانه كان على خيل قريش في الحرب .

٨ – ومن بني عدي : عمر بن الخطاب : وكانت اليه السفارة في الجاهلية و ذلك انهم كانوا اذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيرا وان نافرهم حي لمفاخرة جعلوه منافرا ورضوا به .

٩ – ومن بني جمح : صفوان ابن امية وكانت اليه الايسار و هي الازلام يستقسم لهم بها اذا – ارادوا امرا من امور العامة .

١٠ – ومن بني سهم : الحارث بن قيس وكانت اليه الحكومة والاموال المحجرة التي سموها لالهتهم .

الكتل السياسية في مكة

تتولى السلطة في مكة تلك الحكومة المكونة من عشرة رجال يمثلون القبائل المختلفة في الظاهر ، ولكنهم في واقع الأمر يمثلون القوة المالية التجارية للمجتمع المكي .

فالعباس بن المطلب الذي يتولى السقاية هو اغنى ابناء عبد المطلب بن هاشم . وهو الشخصية الرئيسية في المجتمع المكي اذ كان هو الممثل للمجتمع المكي في المشاكل الكبرى . فهو الذي فاوض أبرهة الحبشي عند هجومه على مكة وكان هو المرجع في الخلافات الاساسية .

وكان ابو سفيان بن حرب هو الذي يدير شئون الدولة عند وقوع الحرب اذ كانت لديه «العقاب» وهي راية قريش فاذا وقعت الحرب اخرج الراية فالتفت حوله قريش الا اذا رأت ان تختار رجلا آخر فتلتف حوله . فهو اذن القائد العام ورئيس الدولة عند نشوب الحرب . وابو سفيان هو اغنى رجل في مكة وهو من امية التي تتنازع السلطة مع الهاشميين .

وكان الحارث بن عامر من اغنى المكيين وكانت اليه الرفادة ، وهي تنظيم المؤونة واطعام الحجيج والاشراف على شئونه .

اذ كانت هناك ضريبة تفرض على المكيين يجبيها صاحب الرفادة ليطعم منها الحجاج . والحارث بن عامر من بني نوفل .

وكان عثمان بن طلحة رجلا واسع الثراء يتولى سدانة الكعبة وعقد الندوة وهي المكان الذي يجتمع فيه الملأ من قريش عندما يتشاورون في امر من الامور الهامة وهو من بني عبد الدار .

ويزيد بن زمعة بن الاسود . وكانت اليه المشورة اي عندما يقرر الملأ من قريش قرارا يرجعون اليه فاذا امضاه ووافق عليه نفذ في مواجهة الجميع وان لم يوافق كان عليه ان يصدر قرارا آخر وهو في هذه الحالة نافذ بالنسبة للجميع . ويزيد من كبار الاغنياء في مكة وهو من بني أسد .

وابو بكر الصديق كان يفصل في الديات والمغارم فاذا قتل قتيل وقرر له على قاتله وافقت قريش وعملوا على تنفيذ قراره وهو من تيم ومن كبار التجار في مكة .

وكان خالد بن الوليد من بني مخزوم ومن اغنيائها ، وهو الذي يضرب القبة عند نشوب الحرب فتتجمع عندها عدة الحرب والخيول ثم يمضي في ترتيب الجيش .

اما عمر بن الخطاب وهو من اغنياء قريش ومن بني عدي فكان يتولى السفارة بين قريش وبين غيرها من البلدان والقبائل . اي انه يتولى السياسة الخارجية لشئون مكة .

وكان صفوان ابن امية وهو من بني جمح هو رجل الدين الذي يستقسم لهم الازلام اذا ارادت مكة ان تنفذ امرا من امورهم . وهو من اغنياء مكة الكبار .

وكان الحارث بن قيس يتولى ادارة الاموال الموقوفة على خدمة الالهة وهي اشبه بوزارة الاوقاف في عصرنا الحديث . وهو من بني سهم واحد أغنياء قريش .

ويدير كل واحد من هؤلاء العشرة شئون الجمهورية الصغيرة فيما يخصه ، فإليهم التشريع وإليهم القضاء ، وإليهم تنفيذ الاحكام ،وإليهم شئون الحرب والدفاع وكل ما يتصل بشئون الدولة .

وإذا درسنا القوانين السائدة أو العرف السائد لوجدنا انها قوانين تحمي الملكية الخاصة حماية مطلقة وتدور حول التجارة اساسا حتى انهم عرفوا اثني عشر نوعا من البيوع ، كما عرفوا الرهون بمختلف انواعها وكانوا يكتبون عقودهم احيانا خاصة في عقود القرض وفي بعض البيوع .

والصورة المنظمة الحديثة للدولة شيء جديد تماماً لا في نظام الحكم في مكة وحدها بل في كثير من المراكز المتحضرة في العالم القديم . ومكة على أي حال لم تكن إلا مركزاً من مراكز التجارة الهامة ومكاناً تجتمع فيه القبائل العربية المختلفة للحج والعبادة .

وكانت الاحكام او القرارات التي تصدرها هذه الحكومة أو عضو من أعضائها تنفذ في مواجهة الاشخاص الذين صدرت ضدهم استنادا إلى التضامن الذي يربط بين اعضاء الحكومة ككل وإلى القوة التي يستندون إليها وهي قوة مادية ومعنوية نادرا ما يطل اثرها في تنفيذ الاحكام ونفاذ القرارات .

صراع السلطة :

وصراع السلطة في مكة قديم وقد لجأت إلى نظام الحكم الاوليجارتي هذا اخيرا ،اذ كانت تخضع قديما لسلطة رجل واحد وهو قصي عبد شمس الذي خاض عدة حروب مع خزاعة وبني بكر حتى تمت له السيطرة التامة على مكة . ولكن بعد وفاة قصي بدأ النزاع بين ابنائه واحلافهم اذ كان قد أسند في حياته الرفادة والسقاية واللواء والندوة والحجابة لابنه الاكبر عبد الدار . . .

واشتعلت الثورة ضد عبد الدار تزعمها بنو عبد مناف وانقسمت قريش بين مؤيد لبني عبد الدار وبين مؤيد لبني عبد مناف . . .

فكان فريق عبد مناف مكونا من بطون عبد شمس وأسد وزهرة وتيم والحارث ،واما فريق عبد الدار فمن بني تامر ومخزوم وسهم وجمح وعدي ووقف على الحياد بنو عامر بن لؤي ومحارب بن فهر . .

وعقد كل فريق حلفا على الا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا ..

« واخرج بنو عبد مناف حفنة مملوءة طيبا فيزعمون ان بعض نساء بني عبد مناف اخرجتها لهم فوضعوها لاحلافهم في المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم ايديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بايديهم توكيدا على انفسهم ، فسمـُوا المطيبين . .

وتعاقد بنو الدار ، وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفا مؤكدا على الا يتخاذلوا ، ولا يسلم بعضهم بعضا فسموا الاحلاف (١) .

وقبل ان تقع الحرب بين المطيبين والاحلاف جرت مساع للصلح فتم الاتفاق على ان تكون السقاية والرفادة لبني عبد مناف وان تكون الحجاية واللواء والندوة لبني عبد الدار .

ومضت الامور على هذا التقسيم الذي نقلت فيه السلطة من حكم الفرد إلى الصفوة او الاوليجارتية ، ولكن الصراع على السلطة ما زال قائما يغذيه نجاح فريق في التجارة ونمو ثروته وبالتالي طموحه إلى السلطة،ومن هنا بدأ الفريق الاقل ثروة يتكتل ليقاوم سلطان الثروة الجديد،ولهذا نشأ حلف الفضول من بني

---

(١) سيرة ابن هشام .

هاشم وبني عبد المطلب واسد وزهرة وتيم وهو حلف اتفقت فيه هذه القبائل على ان تنصر بعضها بعضا .

ويروي ابن هشام ان سبب قيام الفضول هو تكرار عدوان بعض القرشيين على زوار مكة من القبائل الاخرى التي تفد للحج او البيع او الشراء وان رجلا قد استصرخ اشراف قريش ليحموه من ظلم ضاق به فاجتمعت قبائل هذا الحلف في بيت عبد الله بن جدعان وعقدوا حلفهم لنصرة المظلوم حتى يستتب الامن والطمأنينة في مكة وينتظم البيع والشراء .

وليس هذا سببا وجيها لان الحلف لم يضم كل قبائل قريش بل جانبا منها، فلو ان الامر يقصد به حماية التجارة وتأمينها لتداعت كل القبائل للدخول فيه فهم جميعا من التجار ويهمهم ان يؤمنو التعامل في مكة ولكن — مونتجمري وات يلاحظ بحق ان حلف الفضول هو تطور لحلف المطيبين القديم وامتداد له . فحلف الفضول يضم بني هاشم والمطلب واسد وزهرة وتيم ، وهم في الواقع اعضاء حلف المطيبين القديم .

ويلاحظ ايضا ان الكتل السياسة المتصارعة في مكة انقسمت إلى ثلاث مجموعات ، فمجموعة (ا) هي التي تضم اعضاء حلف الفضول مضافا اليهم عدي والحارث بن فهر بينما تضم المجموعة (ب) عبد شمس ونوفل وأسد وعامر . وتضم المجموعة (ج) مخزوم وسهم وجمح وعبد الدار .

وتقسيم مونتجمري وات في المجموعة (ا) مختلف عما اورده ابن هشام في السيرة اذ ان حلف الفضول لم يضم عديا ولا الحارث بن فهر بل ضم أسدا التي وضعها مونتجمري وات مع المجموعة (ب) على أي حال فحلف الفضول حلف سياسي الغرض منه مواجهة تكتل آخر لا حماية المظلوم الغريب فحسب وسترى ان هذا الحلف كان قائما بصورة ما حتى بعد الاسلام. ففي حكم معاوية اختلف الحسين بن علي بن ابي طالب مع الوليد بن عتبة بن أبي سفيان على مال

للحسين على الوليد فرفض هذا ان يؤديه له وهو يومئذ امير على المدينة وفي يده سلطة الحكم، فهدده الحسين بأنه سيلجأ إلى حلف الفضول لينتصف له وحين علم معاوية بذلك ارسل للوليد أن يؤدي الدين حتى لا تقوم فتنة ويبعث حلف الفضول من جديد .

والواقع ان التكتلات السياسية القديمة ظلت تعمل عملها إلى ظهور الدعوة الاسلامية وبعدها وان اخذت صورا جديدة وعلاقات جديدة .

وسنرى ان النبي صلى الله عليه وسلم يقدر حلف الفضول ويعتمده حتى بعد الاسلام ، اذ روى انه قال « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما احب ان لي به حمر النعم ولو ادعى به في الاسلام لأجبت » اي انه لا يحب نقضه وان دفع له في مقابل ذلك حمر النعم .

ويدخل النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحلف بحكم انتسابه إلى الذين عقدوه .

واذا رجعنا لتشكيل الحكومة وجدنا ان لاعضاء حلف الفضول فيها ثلاثة اشخاص فقط هم العباس بن عبد المطلب ويزيد بن زمعة بن الاسود وابو بكر الصديق . اما بقية اعضاء الحكومة فمن غير المشتركين في الحلف وسنجد ايضا ان الوظائف الاساسية في حكومة العشرة موزعة على هؤلاءالسبعة، فابو سفيان ابن حربعنده راية الحرب، والحارث بنعامر عنده الرفادة ، وعثمان بن طلحة عنده اللواء والسدانة والحجابة والندوة ، وخالد بن الوليد عنده القبة والاعنة ، وعمر بن الخطاب اليه السفارة ، وصفوان بن امية عنده الايسار ، والحارث بن قيس عنده الاوقاف والقضاء .

ولو ان توزيع السلطة في مكة كان قائما على التوازن بين القوى لما قامت الحاجة لتشكيل حلف الواضح ان غرضه تجميع قوى معينة يكون لها من القوة

ما تستطيع به أن تدافع عن اهدافها في مواجهة الحكومة أو في مواجهة أي تكتل آخر داخل الحكومة .

ثم اننا اذا القينا نظرة على القبائل المشكلة للمجتمع المكي وجدنا ان الحكومة لا تشملها جميعا فهناك عدد من القبائل ليس ممثلا فيها ،اذن فالحكومة لم تشكل على اساس تمثيل القبائل بل على أساس آخر هو القوة المالية،وسوف نرى ان الممثلين فيها ليسوا هم القبائل ، بل اكثر افراد قبيلتهم غنى . ذلك ان هذا التشكيل للحكم تم قبيل حلف الفضول او معاصرا له تقريبا ، وقد حضر النبي هذا الحلف وعمره حينذاك حوالي الخامسة والعشرين وكان ابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب اعضاء في الحكومة وهم في مثل سنه صلى الله عليه وسلم . فهل معنى ذلك ان رياسة قبيلة تيم قد انتهت إلى ابي بكر في هذه السن المبكرة ام ان ثروة ابي بكر هي التي اهلته للاشتراك في الحكم .

وسنجد ان عبد الله بن جدعان الذي عقد في داره حلف الفضول كان شيخا ذا مهابة وكان على رأس قبيلة تيم !

وهكذا الوضع بالنسبة لعمر بن الخطاب الذي مثل قبيلة عدي في الحكم وهو بعد شاب ليس اقدر من غيره من شيوخ عدي على تولي الحكم .

ومن الناحية الاخرى نلاحظ ان محمدا لم يمثل في هذه الحكومة وهو في سن مقارنة لابي بكر وعمر وكان من الممكن ان يمثل هاشما فيها ، ولكن الذي مثل هاشما هو اغنى رجل فيها : العباس بن عبد المطلب لا بحكم سنه فهو لم يكن اكبر اخوته بل لثرائه .

وسنرى ان التأثير القبلي سيختفي تماما عند قيام الدعوة الاسلامية . ولن نجد من هاشم من يقف إلى جوار النبي صلى الله عليهوسلمالا حمزة واخيرا العباس . اما اعمامه الباقون فلم يقنوا إلى جواره ، واكثر من هذا فان عمه ابا لهب كان

اكثر الذين حاربوا الدعوة وشخص النبي صلى الله عليه وسلم ضراوة ووحشية . ونستطيع ان نتوقف في دهشة عند امتناع العباس عن الاسلام رغم مواقفه الطيبة من الدعوة وصاحبها ، ولولا ان أبا طالب والعباس منعا النبي عندما تآمرت عليه قريش كلها ما قام اتفاق الصحيفة ، على حصار هاشم التي اخذت فيها القبيلة كلها بسبب وقوف ابي طالب والعباس إلى جانب النبي وحمايته . ومع ذلك فقد خرج ابو لهب على القبيلة في هذا الحصار الذي حوله الاعداء انفسهم إلى نزاع قبلي بعد ان كان نزاعا سياسيا تلتقي فيه القوى على اساس المصالح لا القرابة والعصبية . .

وسنرى تفكك القبلية في مقابل تضامن المصالح عند بداية الدعوة حيث تحول الصراع إلى وجهه الحقيقي ، فكثيرون من افراد القبائل التي لم تدخل حلف الفضول اسلموا ووقفوا إلى جوار النبي ، بينما نجد ان هاشم نفسها لم يدخل منها في الاسلام الا فقراؤها ، وعندما ننظر إلى الهجرة الاولى إلى الحبشة سنجد المسلمين فيها يمثلون قبائل كثيرة تصطرع على السلطة والحكم بوضعها القبلي وقد جمع الاسلام هؤلاء المسلمين في موقف فكري وعقائدي واحد ، جمعهم وراء العقيدة الجديدة وما تمثله من نصفة المعوزين والفقراء .

وان اكثر الذين وقفوا من الدعوة الاسلامية موقفا عدائيا إلى اقصى درجة من العداء هم الاغنياء سواء من امية او من هاشم او من غيرها من القبائل ، وقد ضمهم تحالف قوي اساسه المصلحة الاقتصادية وحدها ضد الدين الجديد الذي كان يهدد مصالحهم .

وسنجد ان الآيات الكريمة التي نزلت ، يداك تشير دائما إلى ثراء غلاة الخصوم من أعداء الاسلام باعتبار ان مالهم لن يغنيهم شيئا عن عقاب الله فهذا ابو لهب تنزل فيه الآية الكريمة : « تبت يدا ابي لهب وتب ، ما اغنى عنه ماله وما كسب » .

وهذا امية بن خلف تنزل فيه هذه الآية الكريمة : « ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده يحسب ان ماله اخلده » . .

والامثلة على هذا كثيرة .

فحلف الفضول اذن يحمل الكثير من الاهداف ويؤلف بين مصالح متناقضة اجتمعت على اختلافها لمواجهة تكتل اخطر يهدف إلى السيطرة التامة على الحكم ويقطع السبل على الجميع للنمو والتقدم والحرية .

اساس الصراع :

وصل ابو سفيان إلى الذروة من الثراء والنفوذ وكان هو واحلافه يمثلون الجبهة المقابلة لحلف الفضول ، وفي الوقت الذي كانت فيه عشيرة النبي تتحدر من السلالة القوية التي تنازعت الحكم واستولت عليه زمنا ما وزحزحت عنه زمنا آخر ، كان ابو سفيان من سلالة القوى المعارضة التي تبادلت الحكم ازمانا مختلفة .

وحين بدأ النبي بالجهر بالدعوة كان يبدو ان ابا سفيان سوف يعيد قبضة الفرد الواحد القوي على مكة . وقد قوي نفوذ ابي سفيان لا باحلافه من داخل قريش بل بأحلافه من القبائل العربية خارج مكة اذ كان يدفع لها ضريبة معينة لتحمي قوافله التجارية حين تمر بها . وكانت هذه القبائل على استعداد لتلبية دعوته حين نشوب القتال .

ولم تكن قريش بلدا مقاتلا ، اذ تركوا كل شيء الا التجارة فبرعوا فيها وكان أغلب أبنائها من رجال المال الذين أثروا ثراء شديداً ضمن لهم شراء ولاء القبائل المقاتلة التي اكتسبت خبرة .

ومن هنا كانت قوة ابي سفيان وكان طغيانه هو واحلافه من كبار التجار على المجتمع المكي ككل .

ومن الناحية الاخرى فاننا نلاحظ ان عشيرة النبي فيما عدا عمه العباس كانت قليلة المال ، وكانت من حيث الثروة تعد من صغار الملاك . وكانت هيمنة أبي سفيان على التجارة في مكة قد بلغت اقصى غاياتها . وبذلك لم ينظر ابو سفيان للدعوة الاسلامية الا على أنها ثورة ضده وضد حلفائه . . . ولذلك حاربها تلك الحروب الشعواء الضارية .

وفي رأي أبي سفيان انمحمداً صلى الله عليه وسلم ليس إلا رجلاً من الخصوم هب ليقاوم سلطانه وسلطان امية واحلافهم ليستولي على السلطة وتنفرد بها بنو هاشم .

واذا كان حلف المطيبين ثم تطوره الجديد « حلف الفضول » حلفا سياسيا قام على اساس من العصبية والقبلية فان هدفه الاول هو النزاع على السلطة . وقد تكون الحلف على ثلاثة اسس : الاول تحركه الرغبة في المشاركة في السلطة . والثاني تحركه الدوافع الاقتصادية اذ ضم فيمن ضمهم غالبية من صغار التجار او الذين صاروا صغارا بالقياس إلى خصومهم ، كما انه استفاد من تأييد المعدمين ، ولذلك اتخذ شكلا شعبيا حيث قام على اساس نصرة المظلوم الضعيف من الظالم القوي والثالث تدفعه العصبية القبلية . ولذلك ففي الحلف تجار كبار وتجار صغار ومعدمون ورجال من ذوي الرياسة المهددة رياساتهم بسبب اتساع نفوذ خصومهم .

ومن المؤكد ان تكتل حلف الفضول ليس لونا من الصراع الطبقي الخالص . . . انما هو تكتل سياسي يقوده افراد من نفس طبقة كبار التجار ويضم حلفاء من غير ابناء هذه الطبقة . . ذلك انه عندما ظهرت الدعوة الاسلامية بتغييرها الجذري لنظام المجتمع القائم اختفى هذا الحلف ولم يظهر له اثر في تأييد الدعوة أو مقاومتها ، بل على العكس سنجد ان من قادة هذا الحلف من حارب الدعوة حربا عنيفة . وعندما نجحت الثورة الاجتماعية وقادت المجتمع العربي كله

ودانت السلطة للقوى الجديدة بدأ حلف الفضول يعمل أثره في مجال النزاع على السلطة ، وتشكلت القوى السياسية تشكيلا جديدا . اذ صار النزوع إلى الاشتراكية وهو اساس جوهري من اسس الاسلام يمثله ابناء حلف الفضول القديم وحلفاؤهم الجدد .

ومع ذلك لم يظهر الحلف كقوة سياسية ذات تأثير قوي ومستمر الا في حوادث قليلة ، بعد تغيير شكل المجتمع وتوزيع القوى توزيعا جديدا .

الاسلام ليس ثورة التجار :

يقول كثير من المستشرقين ان الاساس الاقتصادي والاجتماعي للاسلام هو المصالح التجارية للمجتمع المكي ، فعندما توسع تجار مكة في اعمالهم كان عليهم ان يوحدوا الجزيرة العربية تحت قيادتهم حتى يؤمنوا تجارتهم ويمدوا نفوذهم إلى اوسع مجال يستطيعون بلوغه .

وهذا التفسير مخطىء من اساسه . . اذ ان ابسط تفسير له هو انكار جوهر الاسلام وهو اشتراكيته . . الامر الذي يتعارض مع طموح كبار التجار . ثم ان تاريخ الدعوة الاسلامية والحرب الضارية التي ووجهت بها الدعوة من كبار التجار وعلى رأسهم ابو سفيان يتناقض مع هذا التفسير . كما ان مصادر التشريع الاسلامي الاساسية القرآن والسنة على النقيض من هذا تماما .

والواقع ان الاسلام كان ثورة انسانية شاملة على المظالم الاجتماعية وحقوق الملكية المقدسة واستبداد الطبقات القوية بالطبقات الضعيفة كما كان رؤية جديدة للعالم في شتى الجوانب ، ومن هذا الطراز النادر في تاريخ البشرية الذي تولد على أساسه حضارة جديدة تمسك بزمام العالم كله وتقوده إلى طريق اعظم اتساعا في التطور الانساني .

فلم يقتصر الاسلام على الثورة الاجتماعية ، بل اشتمل على نظر جديد للكون ولعلاقة الانسان بالعالم ولعلاقة البشر بعضهم مع البعض الآخر . كان أيديولوجية بالمعنى الحديث لهذه الكلمة . فللاسلام رأيه فيما وراء الطبيعة وللاسلام رأيه في الاجتماع ، وللاسلام رأيه في الاخلاق ، وللاسلام رأيه في التاريخ .

وانتصار الاسلام وسيطرته على العالم المتمدن حينذاك ليس راجعا لقوة السلاح فالامبراطورية الرومانية بغير شك ودون حاجة لسوق الادلة كانت على قدر كبير من القوة الحربية بحيث لا تجوز مقارنتها بمجموعة القبائل التي نشأ فيها الاسلام . كما ان الامبراطورية الفارسية التي حكمت جانبا كبيرا من العالم كانت تملك من القوى الحربية ما لا يصح ان نضعه موضع المقارنة مع قوة القبائل العربية .

وقد يحلو للبعض ان يفسر الانتصارات المذهلة للدعوة الاسلامية على اساس من وهن الامبراطوريتين الفارسية والرومانية (١) فمهما تصل درجة هذا الضعف لا يستطيع أحد ان يعقد مقارنة بينها وبين قوة العرب البدائية عند بدء الدعوة .

واغلب الذين يدرسون ظاهرة تاريخية كبرى كالاسلام يجتهدون اجتهادات لا تستند كثيرا إلى المنطق رغم الادلة العديدة التي يوردونهـــا . فالمؤرخ الذي يؤمن بان الاقتصاد هو الاساس الوحيد لكل تطور بشري ، يبحث في الاسلام عن الدوافع الاقتصادية ويركز عليها وحدها فيبدو الاسلام مجرد تحول اجتماعي بسبب تركيبات اقتصادية واجتماعية متصارعة . والعسكريون يركزون بحوثهم حول توزيع القوى في العالم المتحضر ، ويخلقون من المبررات المثيرة لدهشتهم

---

(١) انظر ذلك في «كتاب الفتوحات العربية الكبرى» لجون باجوت جلوب ترجمة خيري حماد .

هم اولا ما يجعل انتصار الاسلام عسكريا شيئا طبيعيا كمجرد قوة عسكرية . ولدى العسكريين بالذات ستجد كلمات « المذهلة» و «التي لا تصدق» وغيرها من تعبيرات الدهشة مرادفه للانتصارات العسكرية للاسلام .

وكذلك الباحثون في العقائد يجتهدون في البحث عن الاصل التاريخي للعقيدة الاسلامية في ديانات العرب القديمة وفي اليهودية والمسيحية والزرادشتية .

ولكن الحقيقة ان الاسلام رؤية جديدة تشمل جوانب عديدة قد تكون منها هذه الجوانب الا انها ككل شيء جديد معجز تماما وراءه الالهام والتطور الفكري والاجتماعي والاستعداد والتحديات والتهيؤ للحظة الحاسمة التي تحدث فيها الطفرة وهو نفس الامر الذي يحدث في التركيب العضوي للاحياء والتي عجزت أغلب النظريات العلمية الحديثة عن متابعة عمليات التحول المتعددة التي تسبق ظهور الطفرة وتكون سببا في حدوثها .

وتاريخ البشرية يحركه نزوع للتسامي وللسيطرة على غموض الكون وتحت هذا الهدف الكبير تعمل عوامل كثيرة منها التطور المادي في مجالات العلم ووسائل الانتاج ، ومنها الصراع بين البشر على السيطرة وتوزيع الثروة ، ومنها التفكير الفلسفي المجرد ومنها القيم التي تنشأ عن الحياة البشرية بحكم وجودها كجماعة ، ومنها الالهام الذي يتأتى لبعض النوابغ من الافراد . . الخ .

عوامل كثيرة تتألف وتتصارع تنشأ عنها الحركة البشرية نحو التسامي والهيمنة على غموض هذا الكون .

ليست مشكلة البشرية هي تفجير طاقات الطبيعة لسد حاجات البشر إلى مقومات الحياة فقط بل المسألة اعمق من هذا، وما الحاجة البشرية إلى مقومات حياتها الا دافعا ومحركا لهدفها الاوسع والذي تختفي وراءه النزعة الميتافيزيقية لدى جميع البشر .

وكل رؤية جديدة تدفع البشرية خطوة إلى امام في هذا الطريق الطويل تنتصر لانه من المحتّم ان تسلك البشرية هذا الطريق مهما تعترض سبيلها المعوقات من اي نوع . .

وقد تبحث في الاسباب المادية والفكرية التي فجرت هذه الرؤية وكشفت عنها ولكننا اذ نفعل ذلك لا نستطيع تفضيل سبب على آخر او تقديمه على سواه .

وما زلنا حتى الآن نقتفي آثار الدوافع السياسية والاجتماعية مؤجلين النظر في الجوانب الأخرى لاننا سنلتقي بها قريبا . اما هنا فالصراع يبدأ في التبلور والوضوح لا على أساس ان الاسلام ثورة للتجار فقد ثبت بطلان هذا الزعم من العرض السريع للكتل المتصارعة قبيل الدعوة انما هو في جانبه الاجتماعي — تجميع لقوى المستضعفين ضد طغيان كبار التجار ومن هذه الزاوية سنرى كل ما دعا اليه الاسلام يتفق مع هذا اتفاقا شديد الوضوح . .

المسلمون الأوائل :

ليس هناك شك في ان تقسيم الناس إلى تشكيلات اجتماعيةواقتصادية ،عملية تقريبية ، ففي تاريخ الثورات جميعا سنجد ان الطبقة او الطبقات الثائرة تجمعها مصالح مشتركة ولكننا في نفس الوقت ننظر إلى الطبقة نظرة جامعة فليس من الضروري ان كل افراد هذه الطبقة يتحركون معها او يحركونها وفقا لاهدافها الاقتصادية والاجتماعية ،فنحن نعلم ان من بين نبلاء الاقطاع من خرج على الطبقة الاقطاعية وانضم إلى الثورة البورجوازية في المجتمع الغربي ونحن نعلم ايضا ان من اغنياء البورجوازية من خرج على طبقته وانضم إلى الثورةالاشتراكية. والتاريخ حافل بهذه الظواهر وتلك الاستثناءات . وفي الاسلام سنجد ان افرادا كثيرين من [illegible] مكة خرجوا من طبقتهم لينضموا إلى الاسلام وكما اننا نجد ان تلك الظاهرة الاستثنائية في الثورات الاجتماعية فاننا نجدها ايضا في الاسلام .

والاسلام يختلف عن الثورات التي عرفها التاريخ الحديث والقديم لانه إلى جانب كونه ثورة اجتماعية عقيدة دينية تشد اليها القلوب من بين الاثرياء والفقراء على السواء .

ومع ذلك فالحرب ضد الاسلام قام بها الاغنياء في مجموعهم ووقف إلى جوارها المستضعفون في مجموعهم،حاربتها حكومة العشرة في مكة وآزرها اعضاء حلف الفضول الذين مثلوا في حكومة العشرة بثلاثة اشخاص . وقد يرى الذين يحاربون من أجل السلطة ضد امية واحلافها في الاسلام فرصة ترجيح ووسيلة للانتصار ومجالا للنضال . وهؤلاء يدخلون إلى الاسلام يدفعهم العامل السياسي إلى جانب ما في الدعوة من اتفاق مع الفطرة الدينية وايجاد نظام منطقي للعلاقة بين الله والانسان . وقد يرى المستضعفون ان الاسلام ثورة اجتماعية سترد اليهم حقوقهم المسلوبة في الحياة والكرامة والحرية .

هناك اكثر من دافع للذين آمنوا بالاسلام ، الاحساس الديني والصراع السياسي والصراع الطبقي . ولذلك سنرى ان الدعوة تضم اليها المسلمين من هنا وهناك الا ان الطابع الذي يميز الداخلين فيها بصفة عامة هو الصراع ضد سلطة كبار التجار واحتكارهم الحياة لانفسهم .

وعندما نتتبع اول الداخلين في الاسلام سنجد ان اغلبهم من ابناء حلف الفضول .

من الطبيعي ان تكون السيدة خديجة هي اول المؤمنين بالاسلام فهي زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، والمرأة الفاضلة التي مدت اليه يد المساعدة عندما كان راعيا فقيرا فسندته وقوت ازره وسارت معه احسن سيرة لزوجة مع زوجها،وكان بينها وبين النبي حوار طويل في كل شيء في افكاره الاجتماعية وفي الهامه الديني . كما كانت مدركة لشخصيته تماما والارهاصات البادية في تصرفاته المنبئة عن شيء عظيم . وكذلك ساعدته على الوحدة والانعزال وهيأت

لهاالجو الملائم ليستكشف طريقه . ولم يكن اعتكافه الطويل في غار حراء بمعونة خديجة إلا مظهرا قاطعا من مظاهر هذا الادراك العميق لشخصية النبي صلى الله عليه وسلم. ولقد كان قرب خديجة منه كافيا لتبين صدقه وامانته واخلاصه فنحن الان اذ نقرأ قصة زيد بن حارثة . وهو عبد للسيدة خديجة استوهبها النبي اياه لحبه الشديد له وحدبه عليه ، ندرك مدى تأثير هذه الشخصية العظيمة على من يتصل به والاسلوب البالغ الانسانية الذي يتعامل به مع الناس ، حتّى مع الموالي والعبيد. فان زيدا هذا كان غلاما من اسرة طيبة من الشام وقع في الاسر ثم بيع في مكة بيع العبيد فاشترته خديجة ، وبعد سنوات لم يكف فيها والده عن البحث عنه . وجاء الوالد المحزون إلى مكة يسترد ولده فكان ان رحب النبي به ووافق على ان يسلمه ولده ولكن زيدا الذي لقي ابوة من النبي الكريم لم يلقها ابن من والده اختار ان يبقى في حضانة النبي ، والقصة تروى ان الوالد عندما خاطب النبي وعندما خاطب ولده لم يغضب ولم يصب بحسرة على فقد ولده الذي ظل يبحث عنه اكثر من عشر سنوات بل سعد واطمأن اذ لقي ابنه في بيت النبي من ضروب العطف والمحبة والكرامة ما لا يتفق مع حياة الموالي والعبيد كما تعودها المجتمع المكي والمجتمعات المتحضرة كلها . وحرر النبي زيدا وتبناه فكان زيد ابنا بارا إلى نهاية حياته دفاعا عن الدين الجديد في ساحة القتال .

هذا السلوك الرفيع يعطي دلالة قوية على شخصية النبي وتأثيره الصادق على من حوله . ولذلك كان من البديهي ان يسلم علي بن أبي طالب وهو لم يزل طفلا في حضانة النبي وكان ان تكررت نفس الواقعة بين علي ووالده ابي طالب اذ شاهد ابو طالب ولده يصلي وراء النبي فأبدى دهشته من ذلك وسارع يسأل ولده :

اي بني ، ما هذا الدين الذي انت عليه ؟

فقال علي : يا ابت آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقته بما جاء به وصليت معه لله واتبعته .

ومن الغريب ان يكون اول من اسلم من الذكور علي بن أبي طالب الذي لم يستطع ابوه كفالته لفقره فكفله النبي ، وان يكون ثاني الذكور زيد بن حارثه الذي بيع كعبد .

ان خديجة وعليا وزيدا سيمثلون الى المدى البعيد ضروبا ثلاثة من الطبقات التي آزرت النبي آمنت به . وما اسلام ابي بكر وهو تاجر كبير من نفس طبقة خديجة ويربطه بالنبي صداقة متينة تشبه ذلك الرباط القوي من المحبة والتفاهم الذي يربط بين النبي وزوجته، الا شكل من اشكال الايمان الذي ربط غير المستضعفين بالاسلام، ومن ناحية اخرى فان ابا بكر من قبيلة «تيم» التي عقد في بيت شيخها عبد الله بن جدعان حلف الفضول .

وسنرى بعد ذلك ان ابا بكر حين بدأ بالدعوة للاسلام بدأ برجال من طبقته ومن عشيرته .

فاما الرجال الذين من طبقته فكان اولهم : عثمان بن غفان اقرب الاصدقاء إلى ابي بكر على الرغم من انه من بيت امية الذي حارب الدعوة إلى ابعد مدى . وبعد ذلك ضم ابو بكر من بيت اسد (وهم من اعضاء حلف الفضول) الزبير بن العوام من زهرة (وهم من أعضاء حلف الفضول) عبد الرحمن بن عوف ، ومن زهرة ايضاً سعد بن أبي وقاص . ومن تيم طلحة ابن عبد الله (وهي قبيلة ابي بكر ومن اعضاء حلف الفضول) .

وسيتوالى بعد ذلك اسلام المسلمين الاوائل وكلهم يمثلون الاتجاهات الثلاثة التي يتضح اولها في خديجة وابي بكر ، وثانيها في علي بن ابي طالب وثالثها في زيد بن حارثة .

وهكذا تتحدد معالم الاسلام السياسية والاجتماعية منـذ اللحظات الاولى للدعوة . .

الوسط يستولي على الحكم

« ... ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيرا . المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه . فانهم مواد المنافع واسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح في برك وبحرك وسهلك وجبلك ، وحيث لا تلتئم الناس تواضعها ولا يجترئون عليها . . فانها سلم لا تخاف بالقته . وصلح لا تخشى غائلته ، وتفقد امورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك. واعلم مع ذلك ان في كثير منهم ضيقا فاحشا وشحا قبيحا واحتكارا للمنافع وتحكما في البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة فامنع من الاحتكار فان رسول الله صلى الله عليه وسلم منع منه . . . .
وليكن البيع سمحاً بموازين عدل واسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن قارف حكره بعد نهيك اياه فنكل به وعاقبه من غير اسراف » .

هذا النص من رسالة بعث بها علي بن أبي طالب إلى الاشتر وهو احد عماله المقربين الذين وقفوا بجانبه إلى النهاية، ومن هذه الرسالة يتضح موقف علي بن ابي طالب من التجارة والتجار وهو رأي يتفق مع ما جاء به الاسلام .

فالاسلام حرم الربا وبالتالي الغى جميع العمليات المصرفية التي كانت عماد

الحركة الاقتصادية في مكة . والاسلام يصدر تشريعات بعدم دخول المشركين مكة وهم عندئذ غالبية العرب . وما كان العرب يحضرون إلى مكة الا لانها سوق يبيعون ويشترون فيها ولذلك ثار التجار وتخوفوا ان تبور تجارتهم . وقد جاء في القرآن الكريم « يا ايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم » ونفذ هذا الحكم بالتحريم وصار للتجارة مركز ثانوي .

وجاء ايضا في الكتاب الكريم ما يؤكد ثانوية التجارة « واذا رأوا تجارة اولهوا انفضوا اليها وتركوك قائما » .

فاذا كان القرآن الكريم قد حرم الاعمال المصرفية وهي الضربة القاسمة لرأسمالي مكة كما وضع قواعد للتجارة لا تعرف الاحتكار او التحكم في سعر السلعة وجعل لولي الامر ان يتدخل في البيع والشراء فيحدد السعر ويعاقب المخالف فكل ذلك هو ما كانت تأباه قريش وهو الذي جمع اثرياء قريش ووحدهم لقتال الاسلام والقضـــاء عليه . وهو نفسه الذي حدد من اللحظات الاولى موقف الكتل السياسية المختلفة منه وموقف الطبقات الاجتماعية المؤيدة والمعارضة له .

واول الذين دخلوا في الاســـلام من التجار كانوا يتميزون بطابع خاص فهم اما اصدقاء مقربون للنبي مثل ابي بكر الصديق واما اصدقاء مقربون لابي بكر مثل عثمان ابن عفان وغيره ممن اقنعهم ابو بكر بالاسلام وكل اولئك كانوا قلة اما الكثرة الغالبة فكانوا من صغار الملاك او المعدمين او العبيد . حتى ان المكيين كانوا يسخرون من النبي حين يجتمع بالموالي والعبيد والفقراء والمعدمين فيعظهم بالاسلام ويصلي بهم لان احدا من كبار القوم لم يدخل في هذا الدين ولو ان الدين كان على صواب ،في رأيهم، لآمن به كبارهم وسادتهم . وهذا

منطق سطحي ولكنه يدل على عمق احساس كبار الماليين واصحاب السلطة بمناوأة الاسلام لهم وتهديد مصالحهم .

وكتب السيرة للاسف لا تحاول ان تتعمق اسباب الصراع إلى ابعد من المظاهر الدينية ولكنها على كل حال تقدم لنا المادة التي نستطيع منها ان نضع ايدينا على الاسباب المادية في الصراع ضد الاسلام .

ولقد كان النبي كصاحب دعوة يريد لها الانتشار يلجأ إلى رؤساء القبائل والشخصيات ذوات الخطر ليقنعها بالاسلام حتى ان الاعمى ابن ام مكتوم حين جاءه يستفسر عن الاسلام وهو يحاول اقناع الوليد بن المغيرة بالاسلام اشاح عنه . فالاسلام في حاجة إلى التأييد القوي وليس في حاجة إلى تأييد الضعفاء . إلا ان هذا الموقف كان مخطئا فالدين الجديد يحمل بذور الثورة الاجتماعية ورجاله الحقيقيون هم هؤلاء الضعفاء ولذلك سرعان ما نزل القرآن يعتب على النبي هذا الموقف وينبهه إلى ما فيه من خطأ فنزلت الآية الكريمة :

« عبس وتولى ان جاءه الاعمى وما يدريك يزكى او يذكر فتنفعه الذكرى اما من استغنى فانت له تصدى وما عليك الا يزكى واما من جاءك يسعى وهو يخشى فانت عنه تلهى . كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة » .

ويتنبه النبي عليه الصلاة والسلام إلى هذا الموقف حتى يصبح صحابته المقربون هم صهيب وبلال وياسر وعمار وسلمان وابو ذر وغيرهم من العبيد والضعفاء الذين كانوا يكونون بطانته الحقيقية والذين يعتبرون من اقوى واصلب جنود الاسلام .

ونحن نذكر القصة المشهورة حين حاول سلمان الفارسي ان يتخطى الجالسين من كبار المسلمين ليأتي إلى جوار الرسول فيجلس . فثار اشراف قريش من المسلمين واحتجوا فقال النبي قولا قاطعا « سلمان منا آل البيت» وسمح له بأن يجلس إلى جواره . . . وسلمان كان عبدا ولم يتحرر الا بالاسلام .

ونحن نذكر ايضا تعيين الرسول لزيد بن حارثة ربيب النبي الذي اعتقه قائدا لحملة من الحملات التي ارسلها الرسول للفتح ، بل نذكر ايضا كيف اختار ابن زيد وهو بعد فتى لم يتجاوز العشرين ليكون على رأس جيش من بين جنوده خالد بن الوليد . مما اثار شيئا من الجدل بعد وفاة النبي ،هل يقرون هذا الاختيار في مهمة خطيرة كهذه المهمة : ولكن ابا بكر اقر اختيار الرسول ورفض أن ينحي ابن زيد وامضاه قائدا على كبار القواد العرب .

الواقع ان العبيد والمستضعفين كانوا يعرفون ان الاسلام كثورة اجتماعية هو ثورتهم ولذلك انضموا تحت لوائه ، وابلوا في سبيله احسن البلاء . وكان خاصة النبي وموضع ثقته من بين هذه الطبقات . . . اما كبار الاثرياء ممن دخلوا في الاسلام فقد ضمهم اليهم نزوع طيب فيهم . إلى جانب تأثير شخصية النبي عليهم بحكم الصداقة وادراكهم الموضوعي لصدقه فيما يدعو اليه . ولكنهم برغم هذا كله محملون بأراء اجتماعية لم يستطيعوا التخلص منها رغم الاسلام.

وكما يحدث في اي ثورة فاننا نرى في الطليعة المؤمنة بالدين الجديد ثلاثة تيارات ، احدها يسار ثوري والثاني وسط معتدل والثالث يمين محافظ .

ومن البديهي ان اليسار الثوري يتكون من المعدمين والموالي والعبيد وهم الذين وضحت رؤيتهم للاسلام بسبب تحررهم من أي ملكية ، أو جذور طبقية تفسد الرؤية الصحيحة أو تعطلها . أما الوسط فمن هؤلاء الرجال العمليين الذين كان عليهم انقاذ الاسلام بعد وفاة النبي من الصراع الذي يوشك أن يحتدم بين اليسار الذي يفسر الاسلام تفسيرا يحقق العدل الاجتماعي على أوسع نطاق،واليمين الذي يرى أن الاسلام لم يرم إلى الغاء الامتيازات الطبقية ، ولم يقصد إلى تحقيق العدل الاجتماعي على هذا النطاق الواسع .

ولقد حدثت عدة احداث هامة ، اولها ان النبي حين انتصر وفتح مكة دون قتال اراد ان يؤلف قلوب القرشيين ويحضهم على دخول الاسلام ،أملاً في أن

التعاليم الاسلامية سوف تؤثر في قلوبهم وسوف تشدهم إلى الايمان الحقيقي ، ولذلك ترك خصومه وقال لهم «اذهبوا فانتم الطلقاء» وأمن ابا سفيان على حياته وقال «من دخل بيت ابي سفيان فهو آمن» لقد كانت الدعوة اكبر من خصومة ابي سفيان وأكبر من خصومة أي فرد أو جماعة داخل الامة الاسلامية الجديدة.

وكانت الطليعة التي تعمل إلى جانب النبي من القوة والايمان والثورية بحيث لا تستطيع اي قوة داخلية رجعية ان تزحزحها عن مكانها ، أو تفسد دعوة الاسلام في جانبها الاجتماعي .

واستسلم عتاة رجال المال والطامعون في السلطة للقوة الجديدة ورأوا أن التسلل إلى السلطة هو الطريق الاصوب والاسهل ، فوجدنا معاوية يتقرب من الرسول وغيره كثيرون من امية ومن القبائل والأسر التي حاربت النبي والاسلام حربا شعواء .

وقبل النبي اسلامهم بل مضى في مجاملتهم إلى حد بعيد ، حتى يؤلف قلوبهم ويكتسبهم ظاهرا وباطنا للاسلام . ولسنا نريد ان نذهب مذهب غلاة الشيعة فنزعم أن اسلام هؤلاء جميعا كان مدخولا ، وأنه كان وسيلة انتهازية ليركبوا الموجة التي وقفوا ضدها ، فليس هناك شك في أن الاسلام قد هيمن على الجميع وقد اعتبرت القوى الرجعية في قريش أن نجاح الدعوة في الجزيرة العربية كلها واحتمالات امتدادها إلى ابعد من ذلك فرصه مواتية لطموحهم ، وهكذا انخرطوا في الدين الجديد بكل ثقلهم مكتفين من الاسلام بعبادته ، وربما فهموا الدين من هذا الجانب وحده ، وخاضوا المعارك واستبسلوا فيها ، واصبحت لهم قوة يحسب حسابها .

وفي حياة النبي كان رجاله المقربون هم المستضعفين وعلى رأسهم علي بن ابي طالب الذي لم يفارق النبي عليه الصلاة والسلام لحظة من حياته . الا أن السياسة العليا لتثبيت دعائم الدولة الجديدة اقتضت الا يدخل في مجلس الشورى

الذي لا نعرف بالضبط ما هي الصورة الرسميه التي تشكل على اساسها . فكل ما نعرفه انهم كبار المسلمين من حيث مركزهم القبلي والسياسي والذين تسري كلمتهم بالنسبة لمن يمثلونهم . ذلك ان الآثار القبلية لم تكن قد زالت تماماً فليس العهد بينهم وبين الاسلام الا عشر سنوات لم تستطع ان تغير شيئاً بعد في التقاليد القديمة الراسخة . هذا المجلس لم يكن يضم من اليساريين الثوريين الا علي بن ابي طالب . اما بقية اليسار فكان من المستضعفين الذين لا يملكون قوة من أي نوع الا ما امدهم به صدق اسلامهم ونضالهم من اجله . وهؤلاء هم معلمو الاسلام الذين كان يوفدهم النبي للقبائل التي دخلت في الاسلام حديثاً ليفقهوهم في الدين . وكان منهم بعد ذلك حفظة الحديث والسنة والداعون الاشداء الى التمسك بتعاليم الاسلام . ومن هذه الناحية وحدها كانوا يستمدون مكانتهم وهي مكانة كانت كبيرة وتأثيرها كان خطيراً على المسلمين جميعاً ، حتى على اعدائهم .

ولو تشكل مجلس الشورى او على الاصح لو كان ممكناً ان يتشكل المجلس منهم لسار الاسلام سيرة اخرى تماماً . ولكن ما كان يمكن ان يتصدر مجلس الشورى رجال من امثال سلمان الفارسي او ابي ذر الغفاري او عمار بن ياسر او صهيب الرومي ، والقبلية ما زالت في عنفوانها . وأغلب هؤلاء اما مستضعفون واما عبيد من بلاد اجنبية ، فسلمان من فارس ، وصهيب رومي ، وعمار عبد وابو ذر من غفار ، وهي قبيلة لم يكن لها اهمية تذكر ، إلا انها في طريق القوافل القرشية ، وكانت تتولى حماية هذه القوافل حين تمر بها لقاء جعل معين ... وبقية الصحابة من الثوريين تنطبق عليهم هذه الأوصاف وتلك الظروف . وقد اكتفوا بهذا اللقب الخطير وهو « صحابة النبي » .

هؤلاء لم يدخلوا مجلس الشورى ولم يكن منهم رجال الحل والعقد . بل لعل المجلس لم يتشكل تشكيلا رسمياً في عهد النبي ، انما استنبطت شروطه بطريقة اجتهادية لعبت فيها السياسة دوراً كبيراً .

والارجح ان النبي لم يشكل هذا المجلس لكي لا يفرضه على المسلمين ، وليس هناك ما يؤكد ان اهل الحل والعقد هم هؤلاء الصحبة من كبار رجال المال مثل طلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم ممن كانت تعد ثرواتهم ايام عثمان بالملايين . انما هم كانوا أكبر المسلمين سلطة على قبائلهم ، وبحكم مراكزهم الاجتماعية كان الرسول يقربهم ويستشيرهم ، كما يستشير غيرهم . ولوكان العمر قد امتد بالنبي لوجدنا نظاماً ثابتاً ومحدداً للشورى من حيث التطبيق العملي ... اما النص على الشورى فثابت في القرآن كمبدأ عام من المبادىء الاساسية في الاسلام ولكن ما هي صورة هذه الشورى ، او طريقها التطبيقي ؟ هذا لا يستطيع أحد تأكيده مستنداً الى الكتاب او السنة .

على أي حال عندما حضرت النبي الوفاة دفع عمر بن الخطاب ابا بكر ليذهبا الى السقيفة عندما بلغهم ان جماعة من الانصار اجتمعت هناك لتبحث امر الرجل الذي يخلف النبي في قيادة المسلمين . وكان الانصار يرون انهم الذين آووا النبي وانهم الذين خاضوا معه معركة بدر التي تعتبر نقطة تحول في تاريخ الاسلام ، ولذلك فالرجل الذي يخلف النبي لا بد ان يكون منهم . ومن المؤكد أن هناك من أراد استغلال هذه الحجة لصالحه الشخصي من بين الانصار . وكتب السيرة والباحثون المحدثون يشيرون الى ذلك . ومن المؤكد ايضاً أن حججاً كثيرة اثيرت في هذا الاجتماع الخطير ، منها ان الاسلام لا يعرف العصبية القبلية ولا يفاضل بين رجل ورجل الا على اساس جهاده في الدين وصدق اخلاصه الذي امتحنته التجارب . ولعله قد اثير مبدأ المساواة على اوسع مدى ، ومسألة الوراثة وغيرها من المسائل الهامة التي نتجت عن الحدث الجلل ، حدث وفاة النبي الكريم . ان كتب السيرة لم تسجل المناقشات التي دارت في هذا الاجتماع الا في شكل سريع حتى اننا لا نكاد نعرف ما دار الا تخميناً ، المهم ان المهاجرين كانوا يشعرون بحق انهم الرواد الاوائل للاسلام وأنهم اول من تغرب وضحى في سبيله ، وأنهم اول من اسلم وأول من وقف

إلى جانب الرسول . ولعل المناقشات شملت اسرة النبي ، ثم انتقلت الى تحديد أوسع هو المهاجرون في مقابل الانصار . على أن النزاع حسم ببراعة دبلوماسية من السفير القديم عمر بن الخطاب ، مستغلا رجلا لا يستطيع أحد أن يعترض عليه لقرابته الشديدة من النبي ولسبقه في الاسلام وجهاده الذي صاحب الدعوة من ايامها الأولى وهو ابو بكر الصديق . واختيار ابي بكر الصديق كان اختياراً موفقاً اقصى غاية التوفيق ، فهو رجل يرضى عنه اليمين واليسار ولا يستطيع أن يجادل فيه الانصار .

الا أن اليسار كان يقدر ابا بكر ولكن ليس الى الحد الذي يسلم له قيادة المسلمين ، خاصة والتطبيقات الاجتماعية للاسلام لم يكن قد شرع فيها بعد . لقد انهى الرسول الكريم المبادىء العامة في خطبة الوداع المشهورة ، ولكن تحويل هذه المبادىء الى حقائق عملية وتطبيقات لم يكن قد ظهر الى الوجود . ولذلك عارض علي بن أبي طالب والمجموعة التي تمثل اليسار من صحابة النبي في البيعة لأبي بكر . بل ان علياً بن أبي طالب اعتبر اجتماع السقيفة في غيبته تآمراً من جانب عمر بن الخطاب حتى أن الخصام استمر بينهما فترة غير قصيرة .

كان علي وصحبه الى جوار النبي يبكونه ويعدون العدة لدفنه،وعلى حد تعبير بعض المؤرخين ، كانت جثة النبي لم تبرد حين اندفع عمر بأبي بكر الى السقيفة ليبتوا في أمر خليفة رسول الله . وحين ابلغ علي بالنبأ ثار ورفض البيعة ورفضها معه حزبه وأنصاره ، واستمر علي وصحبه ممتنعين عن البيعة ستة اشهر كاملة .

ان اليمين كله قد رحب بخلافة أبي بكر بما فيه مجلس الشورى الذي لم يظهر كقوة هامة ذات طابع رسمي إلا منذ تاريخ البيعة .. واستمر بعد ذلك قائماً إلى أن صفي المجلس كله ، اما بالوفاة واما بالاعتزال ، واما بالقتل في الصراع الذي نشب بين اعضائه على الخلافة ، حتى استولى معاوية على السلطة

من علي بن ابي طالب ووصل اليمين المتطرف الى الحكم واختفت نظرية الشورى هذه حتى العصور الحديثة ، أو عطلت عن العمل تعطيلا تاماً .

وترحيب اليمين بهذه الخلافة والاسراع بتأييدها ليس له الا معنى واحد هو ان غالبية المسلمين كانوا مع الاتجاه اليساري الذي يمثله علي وأصحابه . اعني ان جماهير المسلمين العريضة كانت مع هذا الاتجاه لأن النبي نفسه كان زعيمه وواضع مبادئه الأساسية . وأي اتجاه مضاد كان سيقابل بالعنف . وكان سيقضى عليه في المهد . ولذلك جاءت خلافة ابي بكر فرصة ليستجمع فيها اليمين قواه ويرتب للوثوب على الحكم بعد أن قضى النبي الذي لم يجرؤ احد في حياته ان ينحرف بالدعوة الى اتجاه غير اتجاهها .

لهذا وافق اليمين على البيعة لأبي بكر ، بل رحب بها وعمل على نجاحها بينما عارض اليسار وعلى رأسه علي بن ابي طالب ،معارضة صريحة .

وجاءت الحوادث بعد ذلك لتؤجل هذا الصراع الى حين . اذ سرعان ما ارتدت القبائل خارج مكة والمدينة عن الاسلام ، وكان على المسلمين بمختلف اتجاهاتهم ان يتجمعوا للقضاء على الفتنة وقمعها ...

وهكذا استفاد الوسط الذي يمثله ابو بكر وعمر بن الخطاب من الظروف التاريخية المواتية التي جعلت ايلولة الحكم اليه ضرورة لا مفر منها .

وسنرى ان كتب السيرة تلمح الى أن علياً كان يطمع في الحكم ، وهو أمر يتواتر كثيراً ، ولكن هذه السيرة ، بل كل ما دون عن الاسلام دون في عصر متأخر ، وفي ظل حكم يميني ، السلطة العليا فيه تورث : وكان من مصلحة المتربعين على السلطة ان يقضوا على ما عرف بعد ذلك بالفتنة الكبرى ، حين اسقطت الثورة المسلحة عثمان بن عفان وقتلته .. وهي الفترة التي ظهر فيها الصراع على اشده ...

ويفسر هؤلاء المؤرخون امتناع علي عن البيعة بأنه كان يرى أن تكون

الخلافة وراثية باعتباره اقرب الناس الى النبي واحقهم بوراثته . ولكنهم لا يهاجمون حق الوراثة هذا . بل يستفيدون منه فيما بعد ذلك ولمدى قرن وازيد من ثلث القرن في ظل الحكم الأموي ، ثم لعدة قرون في الحكم العباسي .

ويبدو علي مع هذا رجلاً شخصياً يدافع عن طموحه الشخصي ورغباته الشخصية ، وهـذا الاتجـاه الغريب الذي لم يبـد في تصرف علي السياسي في أي مرحلة من المراحل هو نفسه الذي احتضنته الشيعة . فأصبحت كتاباتهم تدور حول احقية علي بالخلافة من حيث قرابته للنبي لا من حيث ما يمثله . على أن الشيعة تحولوا بعد ذلك الى فرق دينية دخلها الكثير من الاساطير التي يبرأ منها شيعة علي الأولون ، ويبرأ منها علي ، في كل ما وصلنا عنه من نصوص .

وكما أن اليمين كان يخشى هذا اليسار ، فان الوسط كان يخشاه ايضاً ، ولذلك حين حضرت الوفاة أبا بكر الصديق كان أهم ما حرص عليه هو أن تتم البيعة لعمر بن الخطاب ، وكانت وصايته للجميع بذلك وخاصة مجلس الشورى . وهو أمر لم يفعله النبي عن عمد ليرسخ في الاذهان كمبدأ ، ان يكون للمسلمين وحدهم حق اختيار الرجل الذي يحكمهم ...

واليسار دائماً يفتقر الى المبادرة ، لأنه غالباً يؤمن بالمثل العليا و يميل الى المهادنة خاصة اذا تعرضت الثورة للهزات . وهكذا وقف اليسار موقفاً غريباً . موقف المقاطعة ، ثم موقف المسالمة ، ثم الموافقة ، حتى تتخطى الثورة ككل ما يتهددها من أخطار .

وسنرى أن علياً وصحبه قد خاضوا حرب الردة بكل قواهم ووقفوا إلى جوار ابي بكر بكل قواهم . وابو بكر على كل حال لم يكن عدواً ولا خصماً بل رجلاً معتدلا ، فضلا عن قدره الكبير في الاسلام وفي قلب نبي الاسلام . ولقد أثيرت من أول وهلة مفاضلة بين ابي بكر وعلي ، وهي مفاضلة دستورية ليست

على الاساس الشخصي ... فقيل أن النبي اسند قيادة المسلمين في غيبته مرة لعلي ، وقيل في مقابل ذلك أن النبي أمر أبا بكر بأن يصلي بالمسلمين في مرضه ، ومعنى هذا أنه — عليه الصلاة والسلام — يوصي بأن من يخلفه على المسلمين هو ابو بكر . وعلى كل حال لم يفض احد من المؤرخين في هاتين الواقعتين افاضة كبيرة وتركت غامضة ، هكذا في كتب المؤرخين الذين عملوا في ظل السلطة ، كما بالغ الشيعة المتأخرون في تقديم الدلالات على أفضلية علي بالنسبة لأبي بكر . وهو امر لم يخطر على بال احد من المؤلفين .

كل ما هنالك ان كلا من الفريقين كان يحاول ان يستنبط من تصرفات النبي دليلا او ايماءة من النبي الى من يكون خليفته .

واختيار أبي بكر لعمر بن الخطاب وحرصه على ان تقع البيعة له وهو على فراش الموت ، ليس معناه انه يحارب اليسار ويرمي الى ابعاده عن الحكم ، ولكنه كان يرى أن الصراع المتوقع ينبغي ان يؤجل حتى تثبت دعائم الاسلام... ولعله أيضاً كان يرى في اليسار تطرفاً لا يحتمله التجار والكبار من الذين كان له هو شخصياً فضل دخولهم في الاسلام .

ولقد سار عمر بن الخطاب في السياسة التي سار عليها ابو بكر ، وهي السياسة التي اختطها هو الى حد كبير اذ كان المستشار الأول لأبي بكر في كل امر من الأمور ، على الرغم من خلافات جزئية لا تتعارض مع الاتفاق التام في التفكير الذي كان يربط بين الرجلين .

على أن عمر بن الخطاب شخصية غريبة تستحق الدراسة والتأمل . ومع أن لدينا ثروة من الفكر الحديث الذي تناول هذه الشخصية ، فانها ما زالت في حاجة الى مزيد . فهذا الرجل القوي ، الذي يملك المبادرة دائماً ، والذي يتلازم التفكير والعمل عنده كأنهما يولدان في لحظة واحدة ، استطاع أن يصل الى درجة من الحيدة والنزاهة الى مدى بعيد ... ومع ذلك فلم يخل عمر من نقد علي

وصحابته ، إلا أنه كان نقداً لم يصل ابداً الى حد المخاصمة النهائية ، أو إلى حد ان يقوم اليسار بثورة ...

فهناك واقعة هامة لها دلالتها ، وهي ان سلمان الفارسي كان عاملا على الكوفة في عهد عمر ، واراد ان يسير في العراق سيرة تتفق واتجاهه الفكري اليساري ، فكوّن نقابات للصناع تحولت بعد ذلك في عهد الشيعة المتأخرين الى ماسونية سرية . ليس هناك دليل على أن سلمان نفسه قد ارادها او فكر فيها مجرد تفكير .

فالذي حدث — والمصادر هنا غامضة ايضاً — ان التجار والاغنياء حاولوا استمالته اليهم فلم يوفقوا ، ثم بدأوا يحاربونه حرباً صريحة لا يعقل ان تحدث الا اذا كان هو من جانبه قد اتخذ من الاجراءات الادارية ماهدد مصالحهم فعلا . ويبدو أنه لم يكن من السهل اسقاطه محلياً ، وليس لهذا تفسير ، الا أنه كان يتمتع بشعبية واسعة في ولايته . اذ أنهم ذهبوا وفدا الى مقر الخلافة في المدينة فقابلوا عمر بن الخطاب ورفعوا اليه شكواهم وسردوا عليه الاجراءات التي اتخذها والتي كان فيها اضرار بمصالحهم، وعلى الفور عزل عمر بن الخطاب سلمان الفارسي من الكوفة ولم يوله منصباً رسمياً بعد ذلك .

ومن المؤكد أن هذا العزل اثار جدلا عنيفاً بين حزب اليسار وعمر بن الخطاب ، ولكن عمر لم يغير موقفه ؛ ولم يتخذ اليسار أي خطوة عنيفة ليلغي هذا العزل ، لأنه ما كان يمكن ان يعتبر عزل عامل من العمال سبباً في قيام ثورة تهدد الدولة الحديثة ، مهما تكن دلالة هذا العزل .

وعلى كل حال كان عمر بن الخطاب من العبقرية والطموح في نفس الوقت بحيث شغل المسلمين جميعاً بالفتوحات في كل الجبهات ، وهو من البراعة بحيث لم يقف موقفاً عدائياً صريحاً من اليسار ، اذ كان لهم هنا وهناك بعض الحظ في القليل من المناصب . وعمر بن الخطاب نفسه هو الذي عين سلمان من قبل عاملا على الكوفة بعد فتح العراق .

ومن الغريب اننا سنجد ولاية سلمان وعزله قليلة الورود في كتب المؤرخين ولن نجدها الا في متفرقات قليلة،وكان هذا التجاهل قد حدث عن عمد وتدبير .

وليس هناك شك في أن عمر بن الخطاب كان حاكماً مثالياً كما كان انساناً يملأ نفسه الاحساس بالعدل حتّى ان العدل يكاد يكون غريزة فيه . ومن هنا بدأ يتطور في اخريات ايام حكمه حتّى صار اليمين الذي امل فيه يخشاه ويتحين الفرص للخلاص وبدأ اليسار يتقرب اليه ويلتف حوله ويشيد بمواقفه .

ولسنا نستطيع ان نحقق في مقتله الغريب المفاجىء ولسنا بالتالي نريد انْ نشكك في دوافعه . فالثابت باجماع المؤرخين ان ابا لؤلؤة المجوسي قد قتله لسبب تافه ، ومن المؤرخين من يرجعها إلى مؤامرة سياسية كان وراءها الهرمزان وابناء فارس . ولكن التفكير لم يتجه الى ان تكون المؤامرة اوسع من ذلك .

وقد يبدو الكلام عن ان المؤامرة داخلية بالنسبة لمقتل عمر مفاجأة تعسفية ولكننا اذا تتبعنا المؤامرات المحبوكة الى أقصى درجة،والتفكير المثير للدهشة الذي اتبع من معسكر اليمين منذ مقتل عثمان بن عفان وتراخي معاوية في نجدة ابن عمه حتّى يقتله الثوار ، ثم المؤامرة التي قتل فيها علي واعتدي فيها على عمر بن العاص ومعاوية نفسه ، كل هذا يدعونا الى التأمل رغم انه ليس لدينا أي اشارة في كتب التاريخ الى شيء من هذا . ولكننا اذا عرفنا ان حبك المؤامرات على المستوى البارع والذي تم ذلك في أكثر من واقعة،لا نملك الا ان نعيد التفكير في مقتل عمر .

الا اننا نرى ان عمر في عهده الاخير قد ضيق على القادة حتّى منعهم من مبارحة المدينة ، أيْ حدد اقامتهم كما نقول في العصر الحديث ، كما قبض على ناصية الحكم بقبضة من حديد ، حتّى سمي عصره العامر بالفتوحات المثيرة

للدهشة ،بعصر التشدد ... واستطاع عمر بقوة شخصيته وبصرامته على نفسه واهله ان يكسب طاعة ، حتى اعدى اعدائه والطامعين في السلطة . فضلا عن اعجاب عامة الشعب به وارتياحهم لعدله ... ومن هنا لم تكن هناك وسيلة للانتقاض عليه او التآمر ضده بصورة مباشرة .

والى جانب هذا التشدد والتحول الغريب الذي طرأ عليه وهو تحول الى اليسار ،سواء في سلوكه في المدينة أو في تعليماته لعماله على مختلف الامصار وتشدده في محاسبتهم لصالح غالبية المسلمين ، بل لصالح شعوب الامم المهزومة ، فانه بدأ يحدث المقربين اليه بالتفكير في تشريعات جديدة تمس مصالح الاغنياء فيصرح في آخر ايامه قائلا لو استقبلت من امري ما استدبرت لأخذت من الاغنياء فضول اموالهم فرددتها على الفقراء . وقد يتبادر الى الذهن انه يعني بهذا الفضول مالا متبقياً لدى الاغنياء ، او زائداً عن الحاجة ، ولكننا لن نفهم معنى هذا الا اذا عرفنا ان الحاجة التي يعنيها في هذا العهد والتي يعنيها منطق المجتمع الاسلامي حينذاك هي (حلة في الشتاء وحلة في الصيف) ومستوى معيشة « كرجل من قريش ليس باغناهم ولا بأفقرهم » كما جاء على لسان أبي ذر حين شرح مستشهداً بحديث الرسول — مقدار ما يحتاج اليه المسلم صحيح الاسلام من أسباب المعيشة .

ان هذا التصريح شيء خطير في وقت كانت تتكون فيه الثروات الطائلة التي احصيت بعد مقتل عمر وفي خلافة عثمان بملايين الدينارات .

اكان اذن مقتل عمر مؤامرة داخلية من القوى الرجعية التي يهددها عدل هذا الخليفة العظيم ؟

ان نقاشاً حاداً ثار عقب مقتل عمر وفي الايام الأولى لمبايعة عثمان بين علي ابن ابي طالب والخليفة الجديد، هدفه التحقيق في قتل عبد الله بن عمر لابي لؤلؤة المجوسي وزميله في الجريمة ، فهل كان علي يهدف من اثارته لهذه القضية

وتشدده في اثارتها بالحاح مثير للدهشة الى ما هوّ ابعد من مجرد الرغبة في اقامة حد القتل على ابن الخليفة المقتول ؟

نحن لا نعلم حتى الآن عن تفاصيل هذه القضية شيئاً لسنا نعرف ما كان يطويه ابو لؤلؤة ومن وراءه في قلوبهم فقد قتلوا فورا قبل ان تمتد اليهم يد الدولة .

فهل كان علي من القسوة حتى يريد ان يأخذ عبد الله بدم قتلة ابيه ؟ ام انه كان يهدف الى ما هو ابعد من ذلك ؟

ان عبد الله حين ابلغ بالحادث امتشق حساماً وعدا في سورة الغضب إلى القتلة فقتلهم قبل ان يجري معهم اي تحقيق.من الذي افضى اليه بالنبأ . ومن الذي دله على القتلة ؟

لا أحد يعلم اية تفصيلات !

ومن الناحية الأخرى فان عثمان ومستشاريه قد قرروا فض القضية فوراً وقفل التحقيق فيها ، ولم يفلح علي ان يضعها تحت البحث او التحقيق ... واستندوا في هذا الى مبررات لا يملك احد ان يعارضها . وهي انه ليس من المعقول ان يقتل الخليفة اليوم ثم يقتل ولده قصاصاً لقتله قتلة ابيه في الغد .

ولسنا ندري على أي حال كيف كان الحاح علي بن أبي طالب على محاكمة عبد الله بن عمر الا اذا كان غرض المؤرخين من ذكر هذا الالحاح هو الاساءة إلى علي ،ومن بين الكثير من الاساءات الخفية والظاهرة التي وجهت اليه بعد موته بالعشرات من السنين .

ومن الغريب حقاً ان يقتل عمر بن الخطاب وهو على وفاق تام مع علي وصحبه وأن يقف علي هذا الموقف في طلب توقيع القصاص على ابنه .

ثم ان الاتجاه الى عثمان فوراً وكأنه بتدبير سابق مثير أيضاً للتساؤل ،

فالمعروف عن عثمان انه كان شيخا سهلا طيباً ، فهل اراد اهل الحل والعقد ان يعقب عهد الشدة عهد يسر وتساهل كما يذهب بعض مؤرخينا المحدثين ؟ أم أن وراء هذا غاية اخرى ؟ .. ان موضوع تولية علي بن ابي طالب لم يطرح للمناقشة على الاطلاق ، وكأن علياً لم يمتنع عن بيعة ابي بكر هو وحزب كبير من صحابة النبي ذوي الخطر وكأنه لم يقف من عمر نفس الموقف قبل ان يلتقيا في آخر خلافته .

الأمر يدعو للتساؤل ، ولكن ليس هناك دليل مادي يؤكد شيئاً من هذا ... ان كل ما نملكه في هذا المجال هو استقراء للوضع السياسي ومجالات الصراع تثير الشك ولكنها لا تقطع بيقين ..

على أن التحول المفاجيء الذي حدث في خلافة عثمان قد يؤكد هذه الشكوك اذ سرعان ما استنام الشيخ الطيب لقرابته وتصدر السلطة في كل انحاء الأمة الاسلامية قوم من قرابة الشيخ ومن بين الرجال الذين كانوا اكثر اعداء الاسلام عداء واشدهم ضراوة قبل أن ينتصر الاسلام وقبل أن يدخلوا فيه راضين او راغمين .

والاعجب من هذا ان الملكية العقارية على اوسع نطاق لم تتقرر الا في عهد عثمان ، وأصبحت المزارع الشاسعة في الاقاليم ملكاً للارستقراطية العربية يعمل فيها العبيد ، بالمئات والالوف ، وكانت هذه الاراضي ملكاً للدولة طوال حكم ابي بكر وعمر بن الخطاب ...

وإذا بالامصار كلها او اغلبها في أيدي ابناء امية . وهكذا وثبت امية التي كانت تناضل منذ الجاهلية لتسيطر على مكة ، حتى اذا جاء الاسلام عدته محاولة لهدم سلطانها والاستئثار به دونها . ثم لم تلبث هي واحلافها أن غيرت خطتها واصبح التسلل الى مراكز الصدارة هو غايتها .

وقد لا ينفي هذا صدق اسلامهم ولكنه لا ينفي ابداً انهم يمثلون طبقة

ويفكرون تفكير طبقة ويدبرون تدبيراتها لتحقيق مصالحهم وطموحهم ...

وسوف نرى أن صحابة النبي يبعدون ويعاملون بخشونة حتى بالضرب المهين .. فهذا عبد الله بن مسعود يعزل من وظيفته كخازن لبيت المال في الكوفة لأنه طالب بوفاء حق لبيت المال على احد قرابةعثمان كان قد اقترضه، ولما ألح عليه برد الدين شكاه لعثمان فارسل الخليفة يعنفه ويفهمه انه ليس الا « خازناً لنا » وكان عبد الله بن مسعود يحسب انه خازن لمال المسلمين وأنه بالتالي مسئول عنه امام ضميره وامام المسلمين . فالقى بمفاتيح بيت المال واعتزل وظيفته ولزم بيته فأرسل الخليفة في طلبه فأرسله الأمير . ولا نعلم بأية صورة أرسله ، ولكنه ما أن وصل حتى سبه عثمان على مرأى من الناس سباً موجعاً دفع عائشة الى أن تقول صائحة على الملأ : « أي عثمان اتقول هذا لصاحب رسول الله » وقام علي فاحتج على عثمان ...

ولكن الذي حدث انه اخرج بأمر عثمان وضرب ضرباً مبرحاً حتى كسرت له ضلع ، ثم أمر عثمان فمنع عنه مرتبه ، وظل كذلك الى ان حضرته الوفاة ...

وما عبد الله بن مسعود إلا أحد أعمدة اليسار الاسلامي ومن اقرب المقربين الى رسول الله ... »

وسوف نرى أيضاً كيف عومل صحابي آخر معاملة مهينة هو أبو ذر الغفاري .. ومنزلته من النبي مشهورة ومعروفة حين هب يقاوم التشريعات الجديدة التي اطلقت الملكية اطلاقاً واسعاً فدعاه عثمان وجادله بأن المسلم اذا ادى الزكاة فليس عليه بأس وليس يطالب بعد ذلك بشيء . فقال ابو ذر قولته الشهيرة ، (لا ينبغي لمن ادى الزكاة ان يقنع حتى يطعم الجائع ويعطي السائل ويبر الجيران) ...

وفي هذه المعركة التي تتناول المبادىء الاساسية للاسلام ، كان معاوية ومعه عثمان يريان ان المال مال الله وبالتالي فللخليفة ان يتصرف فيه كيف يشاء

إلا أن أبا ذر، كان يرى ان المال مال المسلمين وليس للخليفة ان يتصرف فيه كيف يشاء ، بل كما يشاء المسلمون . إلى آخر ذلك الجدل المشهور والذي انتهى بنفي ابي ذر في صحراء الربذة وحرمانه من عطائه الى أن توفي دون ان تجد زوجته كفناً تكفنه حتّى تصدق عليه رجل بردائه تكفن به .

وحين هب عمار بن ياسر ليدافع عن ابي ذر ويعارض قرار نفيه عنفه عثمان وازدراه على منزلة عمار في الاسلام وأمر بنفيه هو الآخر ، حتّى اذا تدخل علي بن ابي طالب محتجاً قال عثمان لعلي : ما انت بأفضل من عمار ، وما انت أقل استحقاقاً للنفي منه ...

بل ان عثمان امر في مناسبة أخرى أن يضرب عمار فضرب حتّى غشي عليه ثم ركله بقدمه في بطنه في مرة أخرى حتّى اصابه بفتق ..

وهكذا بدأ اليسار في قمته ينفى ويعزل ويضرب ، كما كان معاوية بن ابي سفيان هو الشبح الذي يخوف به عثمان معارضيه فيرسلهم اليه فيتفنن في عقابهم .

* * *

ان هذه الاحداث ليست صدفة ، ولا يمكن أن تحدث بلا مقدمات ... انما هي دليل على أن السلطة اليمينية قد وثبت الى الحكم ، وسواء كان عثمان رجلا طيباً ومستشاروه هم الاشرار ... أوكان صاحب سياسة ينفذها عن فهم وقصد، فان الذي حدث أن كل اجراء تم في هذا العهد كان لمصلحة الاغنياء : ليزدادوا غنى ، وضد مصلحة الفقراء ليزدادوا فقراً على حد تعبير ابي ذر في محاجاته لمعاوية وعثمان ...

كما أن المراكز الرئيسية في الامصار كرئاسة المصر أخليت بالتدريج من شاغليها ليشغلها ابناء « الطلقاء من امية وغيرهم ، أي هؤلاء الذين لم

يعاقبهم الرسول من أعداء الاسلام حين تم له فتح مكة وقال لهم (اذهبوا فانتم الطلقاء) حتى يؤلف قلوبهم للاسلام ...

وهكذا كان على الثورة ان تشتعل وأن يضطر اليسار إلى المبادرة بالعمل . وأن يدافع عن المبادىء الاساسية التي صار تغيرها وتحديها دون أي مواربة .

اليمين والثورة

يعتبر مقتل عمر بن الخطاب نقطة البدء في وثوب اليمين على السلطة في المجتمع الاسلامي . وقد شغل مقتل عمر المؤرخين القدامى والمحدثين على السواء ، العرب والمستشرقين ، ولكن أغلبهم لم يستطع أن يقطع برأي فيما اذا كان هذا القتل نتيجة لمؤامرة داخلية من حزب اليمين سخر فيها لؤلؤة المجوسي ، ام انها مؤامرة من الشعوب المغلوبة على امرها وخاصة فارس ضد خليفة المسلمين ، أم انه عداء شخصي من أبي لؤلؤة نتيجة للضريبة التافهة المفروضة عليه .

وقد يصح هذا الخلاف وتصح هذه الحيرة اذا نظرنا للقضية من وجهة نظر محدودة ، ولكن اذا تتبعنا الصراع الحاد منذ الجاهلية حتّى مقتل عمر بين اليمين واليسار وجدنا ان المنطق يتجه الى ادانة اليمين ادانة قاطعة . فعمر في أخريات ايامه تحول الى اليسار ، بدأ يأخذ بمشورة علي واصحابه ، وبدأ يصادر اموال اشراف قريش ، حتّى تلك التي كسبوها مغنماً في الحرب ، وهو أمر كان موضع خلاف ، اذ أن شروط الحرب في توزيع الغنائم والتي عمل بها الرسول في اكثر الغزوات ، كانت في صف اصحاب الثروات ، واجراء عمر بن الخطاب كان خرقاً لقانون معمول به لولا أن الرسول كان قد سبقه إلى هذه المصادرة ، فاعتبر عمر هذه المصادرة قاعدة اساسية .

ولا شك ان الحق كان في جانبه ، فروح التشريعات الاسلامية كانت تؤيد هذا ، كما أن الرسول قد أكدها حين قام بأول مصادرة ، فضلا عن أن الفتوحات في عهد عمر قد اتسعت اتساعاً كبيراً ولم تعد مغانم الحرب شيئاً محدوداً كتلك المغانم التي غنمها المسلمون في الغزوات الصغيرة الداخلية في عهد الرسول .

ولهذا لم توفق المعارضة التي عارض بها اليمين اجراءات عمر في اكتساب الشعبية الى جانبها ، فهي مصادرة لصالح بيت المال ولصالح جماعة المسلمين كما أن اليسار ايدها تأييداً كبيراً ، واضطر اليمين أن يسكت على مضض ، وأن يبيت امراً . فاليمين عادة يتساهل في السلطة ، ومن الممكن ان يركن الى حكم وسط ما دام يمالئه ويرعى مصالحه ، ولكن عندما تهدد هذه المصالح تهديداً مباشراً يبادر إلى العمل . واليمين ليس صاحب مبادىء بالمعنى المثالي فالقيمة الكبرى هي الثروة بما ترتبه من جاه وسلطة ... ولذلك فهو أقرب إلى التفكير العملي السريع ، وهو دائماً يملك زمام المبادرة لتحرره من أي قيد الا قيد المصلحة الشخصية ، وفي اندفاعه للدفاع عن مصالحه لا ينظر إلى المصلحة العامة ولا الى المبادىء الانسانية ولا إلى حكم التاريخ .

والاجراء الثاني الذي اتخذه عمر وأثار اليمين وحركه للعمل هو تحديد اقامة كبار المسلمين في المدينة تحت عينه وتحت رقابته .

واذا أضفنا إلى هذا ، التقارب الشديد الذي نشأ بين عمر وحزب اليسار وضح لنا أن اليمين كان عليه أن يتحرك وبأسرع ما يستطيع .. وهكذا دبرت المؤامرة مع ابي لؤلؤة المجوسي ، وقد رسم كل شيء رسماً دقيقاً ، فعقب اصابة عمر مباشرة يبلغ عبيد الله بن عمر بالجريمة وبالقاتل ومن اشترك معه ، وحين يبلغ عبيد الله بالنبأ يبادر بقتل القاتلين ، وبهذا تنتهي ادلة المؤامرة بمقتل شهودها الوحيدين . على أن عبيد الله حين بلغه النبأ كان يدمدم بعبارات يفهم

منها أنه لا يقصر الاتهام على المجوسي ، ومن وراءه ، بل يتهم ايضاً اشراف قريش .

ومع انه ليس لدينا دليل في المراجع التاريخية القديمة فانه ليس من السهل ان نقبل ذلك التفسير الساذج لمقتل امير المؤمنين واكبر حاكم في العالم المتحضر حينذاك ، ان اجيراً مجوسياً يقتل رأس أكبر دولة في العالم من أجل مناقشة حول درهمين .

على أن تشدد علي في التحقيق ، واصرار عثمان على حفظ التحقيق، فيه من الدعوة إلى التأمل والشك فيما ذكر عن هذه الجريمة ما يجعلنا نفعل ذلك ونتجه إلى ادانة اليمين . واذا كان المحك الحقيقي في معرفة المجرم في جريمة ما هو معرفة دافع الجريمة ، فان الدافع في هذه الجريمة واضح جداً ، بل ان الجريمة قد أدت الغرض منها وجاء اليمين الى الحكم .

وسوف نرى بعد ذلك كيف سارت الامور ، وكيف تقاعس معاوية عن نجدة عثمان بن عفان حتى قتله الثوار ليهب بعد ذلك مطالباً بثأره متهماً علياً بن ابي طالب بالاشتراك في قتله ..

وسوف نقف ايضاً موقف المتردد من مقتل علي بن ابي طالب ، والذي تم ايضاً بمؤامرة قام بتنفيذها ثلاثة اشخاص يقتل كل منهم علياً ومعاوية وعمرو بن العاص فينجو عمرو ومعاوية ويقتل علي ليخلو الجو لمعاوية ويثب على الحكم .

ونحن نقرأ في المراجع القديمة أن ابا الاسود الدؤلي قد اتهم معاوية بالتآمر على قتل علي ، ولكن هذه الجريمة مرت ايضاً مروراً عابراً ، وصورتها السلطة كما شاءت ، وجاء المؤرخون المحدثون ينفون عن معاوية التهمة حتى أن مستشرقاً مثل يوليوس فلهوزن يستبعد التهمة في سرعة خاطفة دون ان يقيم الدليل على هذا الاستبعاد ..

وسنقرأ ايضاً عند فلهوزن نفسه ، كما عند سائر المؤرخين القدامى مع

اختلاف في الروايات ، كيف دس معاوية السم لانصار علي الذين عينهم عمالا على مصر ، فقتل مالك بن الاشتر والي علي على مصر وعبد الرحمن بن خالد ابن الوليد واليه التالي على مصر ، وقتل انصاره محمد بن حذيفة ومحمد بن ابي بكر الصديق ...

ان جرائم الاغتيال والقتل بالسم وبكل الوسائل لم يتورع عنها اليمين ليستتب له الحكم ، ونحن نعلم كيف استعمل الترهيب والترغيب لتثبيت الدولة الاموية .

فالاغتيال ليس أسلوباً شاذاً في هذا الصراع الدامي الرهيب ، ومن هنا كانت وقفتنا عند مقتل عمر بن الخطاب .

لقد اختفى الجانب الديني في الصراع بين اليمين واليسار في الاسلام وقفز إلى السطح الصراع السياسي وحده ، واصبح هو الذي يحرك الاحداث تحريكاً سافراً ودون مواربة .

ولاية عثمان :

لم تكن اثارة مقتل عمر بالشيء الممكن قبل ان ينتخب خليفة جديد للمسلمين ، يبت في الأمر ويوقع القصاص باذنه . ولذلك كان أول ما ينبغي عمله هو اختيار الخليفة .

وفي ظل الحدث الكبير ، مقتل امير المؤمنين ، بدأت المشاورات لاختيار الخليفة الجديد . وسنرجع ايضاً لمجلس الشورى ، وهو مجلس لم يكن موجوداً بصفة رسمية ولا بصفة غير رسمية في عهد الرسول ، انما هو مجلس اوجده عمر بن الخطاب ليتولى ترشيح الخليفة ، أو اختياره بصورة ادق . وقلنا ان هذا المجلس لم يكن فيه من يمثل اليسار الا علياً بن ابي طالب ، ولم تكن له وظيفة رسمية الا اختيار الخليفة في مدة حددها عمر ايضاً ثلاثة ايام .

اما فيما عدا ذلك فالخليفة يستشير في امور الدولة من يستشيرهم سواء من من هذا المجلس أو من غيره ... وأياً كانت الدوافع التي دفعت عمر بن الخطاب لتشكيل المجلس بصورته هذه ، فانه كان مكوناً حين وفاة عمر من سبعة اشخاص لهم ان يشيروا وأن يطلبوا البيعة لانفسهم فيما عدا عبد الله بن عمر الذي كان له ان يشير فقط ، ولم يكن له ان يرشح نفسه للخلافة ، هؤلاء السبعة كانوا عبد الله بن عمر وهو رجل « وقذته العبادة » كما قال عنه معاوية بعد ذلك . إذ كان أقرب الى التصوف والتفرغ للعبادة منه الى رجل الدولة والمناضل السياسي ، وعبد الرحمن بن عوف وهو من اغنى الاغنياء يحرك اداة الحكمبواسطة غيره ولا يتصدر هو السلطة ، وخير من يمثل اثرياء قريش في هذا المجلس.. وعثمان بن عفان وهو من اثرياء قريش وأحد اقطاب بني امية ، ثم سعد بن أبي وقاص وهو من اغنياء قريش وأحد القادة الكبار في المعارك الاسلامية الهامة وهواه بالطبع مع حزب اليمين ... ثم الزبير بن العوام ، وهو ايضاً من اثرى اثرياء قريش وأحد دهاتها ثم طلحة وهو ايضاً من اثرياء قريش وأخيراً علي بن ابي طالب ...

ولنا ان نتصور موقف علي بن ابي طالب من زملائه الستة ، انه احد الذين يختارون الخليفة وهذه مهمة سهلة ، ولكن من الصعب انيبدأ باختيار نفسه ،وهو في نفس الوقت يعلم أن احداً منهم لن يختاره ، فهم جميعاً في كفة من حيث هواهم السياسي ، وهو وحده في كفة . وهذا لا يطعن في اسلام اعضاء مجلس الشورى ، فكلهم من ذوي البلاء الحسن في الاسلام ، ولكن وضعهم الطبقي ومصالحهم تجعل لهم مفهوماً خاصاً للعدل الاجتماعي يختلف مع مايدعو إليهعلي.

وانه لمن الصعب على أي انسان ، وان كان يتصدى للخدمة العامة ، تصدياً يستهدف مصلحة الأمة ان يرشح نفسه في هذا الجو شبه المعادي .

والذي حدث ان احداً لم يرشح علياً ، بل بدا ان الجميع يريدون ترشيح

انفسهم . ومن المتصور أن يطمح الزبير بن العوام او سعد بن أبي وقاص في الخلافة ، ولكن هذا الطموح يصبح غريباً شيئاً ما في وجود علي بن ابي طالب الذي كان حزب كبير من احزاب المسلمين يعتقدون انه كان أولى بالخلافة من أبي بكر ، ثم أولى بها من عمر .

وليس هناك شك في أن كلاً من اعضاء المجلس يعتقد انه أقل جدارة بالمنصب من علي ، ولكن منطق الحوادث ومركز علي في الاسلام ، وميل غالبية المسلمين اليه كل هذا قد يجعلهم يترددون كثيراً او قليلا في التفكير في منافسة علي بن أبي طالب في قيادة المسلمين. على أن الذي حدث غير ذلك ، فقد بدا ان الجميع يريدون ترشيح انفسهم ومنافسة علي . وهناك ايضاً ما يثير الانتباه بالنسبة للفتوحات الكبيرة التي تمت في عهد عمر ... لقد سمعنا عن قيادات ابي عبيدة الجراح وخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص .. ولكننا لم نسمع عن قيادة لعلي بن أبي طالب . ولقد كان من السهل تفسير هذا لو أن علياً لم يكن محارباًمن الطراز الأول . اما وعلي من اخطر فرسان المسلمين ، بل اخطرهم على الاطلاق، فهو المحارب الذي لم يهزم ابداً . وهو الذي كان يتقدم للقتال عندما يبرز مقاتل من الاعداء ينهزم امامه فرسان المسلمين ، فما ان تدور رحى المعركة حتى يبدو تفوق علي الخارق للعادة ويسقط العدو صريعاً . وعلي فعل ذلك وهو بعد فتى لم يتجاوز العشرين ثم استمر يفعله في كل المعارك التي خاضها المسلمون . وحين نشب القتال بينه وبين معاوية الذي كان يعد جيش الشام اعداداً مبيتاً لهذه المعركة الفاصلة انتصر علي حتى اضطر جيش معاوية ان يرفع المصاحف على الحراب طلباً لوقف القتال والاحتكام الى القرآن . فعلي محارب فردي على رأس جميع المحاربين تصدى لجانب كبير من الجيش العربي الذي دك الامبراطورية الفارسية ، وزلزل الامبراطورية الرومانية .

فما السر اذن في أن علياً لم يبرز في فتح من فتوحات الاسلام في عهد عمر ؟

من المؤكد ان ابعاده عن القيادة الحربية في المعارك الهامة لم يأت اعتباطاً ، فالواضح ان عمر بن الخطاب كان حذراً في كل خطوة يخطوها ، وقصة عزله لخالد بن الوليد وتولية ابي عبيدة الجراح قصة شائعة ... وسواء أكانت انتصارات خالد وبطولته الشعبية الذائعة أم خلافه القديم مع عمر هو السبب في هذا العزل فان هذه الحادثة تدل على شدة حذر عمر وحدة توقعاته للمستقبل .

كان هناك اذن تجنب لعلي وحزب علي في ميادين القتال ، كما كان هناك ايضاً تجنب لهم في تولية المناصب ، وعلي وحزبه منذ اللحظة الأولى عرفوا ان الوسط قد استولى على الحكم ورضوا بأن يكونوا حزب المعارضة فيبينوا الأخطاء وينبهوا اليها او يقفوا ضد قرار يرون انه مجانب للصواب . وهذا ما فعله حزب علي طوال حكم عمر . وهو الذي اثمر في النهاية ذلك اللقاء بين الحزب وعمر بن الخطاب .

فجو التجاهل من السلطة لعلي كان موجوداً قبل مصرع عمر ، ولا يستبعد ان يكون تشكيل مجلس الشورى بصورته هذه تم عن قصد وتبصر من جانب عمر حتى يضمن الا تعلو كلمة اليسار في اجهزة الحكم الرسمية . ولسنا ندري ماذا كان سيفعله عمر بن الخطاب لو امتد به العمر بالنسبة لنظام الحكم ، وبالنسبة لمجلس الشورى ونظام الشورى نفسه ، ولكن من المؤكد انه كان ينزع نزوعاً واضحاً الى الانضمام لليسار الاسلامي

ولعل معارضة اليمين قد اشتدت لهذا السبب وانتهت الى التخلص من عمر دون أن نسمع صوتاً معارضاً من مجلس الشورى بما فيهم عبد الله بن عمر عضو المجلس ، والرجل الزاهد القانت الذي هزته الكارثة في ابيه فزادته صمتاً على صمت ، في الوقت الذي دفعت اخاه عبيد الله بن عمر الى أن يمتشق سيفه وأن ينتقم لأبيه من قاتليه . أما بقية المجلس فلم نقرأ فيما بين ايدينا من

المراجع ما يوضح موقفهم فيما عدا علياً بن أبي طالب الذي وقف موقفاً متشدداً لاعادة التحقيق في مقتل عمر ونجاح عثمان بن عفان في اقفال باب التحقيق ، هذا النجاح السريع يؤكد أن الحاح علي وتشدده لم يكن له انصار داخل المجلس .

على أي حال فان اعضاء المجلس بدوا كما لو كان كل منهم يريد خلافة المسلمين لنفسه . ولهذا او لسبب لا ندريه تصدى عبد الرحمن بن عوف لينفرد باختيار الخليفة اذ بادر بخلع نفسه ليكون في موقف المحايد .

وهنا اصبح هو صاحب الحق في ان يختار من بين زملائه الخمسة . ولسنا ندري ماذا كان موقف علي من هذه المبادرة . انما الواضح أنه سكت على مضض وترك الأمور تسير في طريقها فما من سبيل لتغيير اتجاهها .

واعتكف عبد الرحمن بن عوف ثلاثة ايام وهي المدة التي حددها عمر للبت في أمر الترشيح وراح يجري اتصالات جانبية انتهت الى أن يحصر الترشيح في عثمان بن عفان وفي علي بن أبي طالب ليختار هو بينهما ،طلب من علي ان يبايعه على كتاب الله وسنة رسوله وفعل ابي بكر وعمر فقال علي : لا ... ولكني احاول من ذلك جهدي وطاقتي . وطلب من عثمان مبايعته على كتاب الله وسنة رسوله . وفعل ابي بكر وعمر . فقال : اللهم نعم ... فبايعه .. هذا ما ترويه القصة . فعلي اراد ان يحتاط لنفسه فيما يختص بفعل ابي بكر وعمر فرفض البيعة بلا تحديد . وايا كانت الحقيقة فقد انتهى عبد الرحمن بن عوف اخيراً الى ترشيح عثمان ومبايعته . ولم يكن امام علي الا ان يسلم بهذه النتيجة بعد أن بدأت هذه البداية فاضطر لمبايعة عثمان . لقد لعب اليسار دور المعارضة في أيام عمر حتى التقت الحكومة في شخص رئيسها مع المعارضة . فلا ضير أن يستمر هذا الدور في عهد عثمان دون أن تطمع المعارضة في أن يلتقي عثمان مع المعارضة . فعثمان هو قيادة اليمين ، وهو مرشحهم . والحرب

بين المعارضة والحكومة ستبدأ دون مساومات . وفي اليوم الأول لخلافة عثمان دخلت المعارضة المعركة بكل ثقلها وطلبت التحقيق في مقتل عمر عن طريق محاكمة عبيد الله بن عمر لتخطي حق ولي الأمر في توقيع القصاص بالقتلة . ومع ان القضية حفظت وانتهى الأمر ، فان هذه البداية كان لها معناها ، وهي ان اليسار سيقاتل بكل ما فيه من قوة .

أما اليمين بقيادة عثمان بن عفان فقد لجأ الى الاسلوب التقليدي الذي يتبعه اليمين في كل العصور . وهو اغراق الناس بالمال لضمان سكوتهم ورضائهم ، واليمين يفعل ذلك مرة واحدة ، ثم يتحول بعد ذلك الى الافادة من هذا المال على أوسع نطاق .

لم يغير عثمان في سنته الأولى والياً من الولاة الذين عينهم عمر بل ابقاهم كما كانوا .. وكانت الامبراطورية الاسلامية حينذاك تتكون من احدى عشرة ولاية بما فيها المدينة . كانت مكة والطائف وصنعاء والكوفة والبصرة ومصر وحمص ودمشق وفلسطين والبحرين وما يتبعها هي الولايات التي تخضع للحكم المركزي في المدينة ، وكان هناك عامل على الجند هو الذي يتولى أمور التعبئة وتحضير الجيوش ، وبهذا يكون جهاز الحكم الرئيسي مكوناً من احد عشر عاملا بخلاف كاتب الخلافة الذي كان يعتبر في مركز اقوى من مركز العمال انفسهم.. وللقارىء أن يتصور ولاية كمصر يحكمها عامل من قبل الخليفة ، ومع هذا العامل جميع الاجهزة التي تسير الدولة . على أن أكبر الولايات واغناها كانت اربعاً مي الكوفة والبصرة ومصر والشام .

في هذه الحكومة الكبيرة لم يفعل عثمان بن عفان شيئاً . لم يعزل عاملا واحداً مدة سنة باكملها ، وكأنه هو ومستشاريه ، كانوا يتحسسون الطريق للسيطرة التامة على الامبراطورية .

كان اغلب هؤلاء العمال ليسوا من قريش ، وبالتالي ليسوا من امية الا معاوية

ابن ابي سفيان الذي كان والياً على دمشق . وسوف نرى بعد ذلك كيف سارت سياسة عثمان بالنسبة للولايات .

أما الخطوة التي استهل بها حكمه فهي زيادة اعطيات الناس ، وهذه الأعطيات أشبه بالمرتبات او المعاشات بصرف النظر عن الاعمال التي يزاولونها سواء كانت تجارة أو زراعة أو صناعة ، وهذه الاعطيات كانت تمنح نتيجة لبلائهم في الاسلام وتصرف بصفة دورية منتظمة . وبالطبع احدثت هذه الزيادة اثرها وسكنت من خواطر الناس وجعلتهم يسكتون عن اشياء كثيرة يستعدون لاثارتها ربما كان منها اثارة مسألة البيعة ذاتها او مقتل عمر ومحاكمة عبيد الله ابنه لقتله شركاء ابي لؤلؤة،واتبع عثمان هذا الاجراء اجراء آخر هو دعوة الوفود والامصار والولايات ليعطيها ويجزيها ، ثم زاد على ذلك فضاعف لاهل المدينة عطاءهم في رمضان ، ثم اصبح يقيم من بيت المال مآدب عامة يؤمها الناس . كل هذه التوسعة بعد الشدة التي أخذ بها عمر المسلمين تمت في الاسبوع الأول من حكم عثمان بن عفان .

ولا شك ان هذه التوسعة احدثت اثرها في عامة الناس فسكتوا الى حكمه وزال ما كان يمكن ان يضمروه للخليفة الجديد .

وانتقل عثمان بن عفان من ارضاء عامة المسلمين بالصلات والاعطيات والاجازات الى خاصة المسلمين والقيادات الكبرى منهم على وجه خاص . فهذا هو يصل من بيت المال الزبير بن العوام احد اعضاء مجلس الشورى وأحد المرشحين للخلافة بستمائة الف ووصل عضوا آخر في المجلس هو طلحة بمائتي الف ... ونزل له عن دين كان عنده .

ونحن لا نعرف لماذا وزعت هذه الصلات الضخمة من بيت المال ولماذا استأثر بها هذان الزعيمان دون غيرهما . الا اذا كان عثمان يرى أن يؤلفهما لجانبه ، وأنهما أقرب الاعضاء الى هذا الاحتمال ، وسوف نجد بعد ذلك انه يسترضي

سعد بن ابي وقاص فيعينه عاملا على الكوفة ، فلم يبق بعد ذلك الا عبد الرحمن ابن عوف صاحب المال الوفير حتى في ايام الجهاد الأولى وفي حياة النبي . وعبد الله بن عمر وهو رجل زاهد ، ثم علي بن ابي طالب .

ولعل علياً لم يوافق على هذه الصلات المبالغ فيها والتي ليس لها معنى الا تبديد مال المسلمين وتسخيره في الاغراض السياسية .

على أن الاخطر من هذه الصلات جميعاً هو الغاء قرار تحديد الاقامة والسماح للصحابة ان يتفرقوا في الأرض وأن يتصلوا بالجند وأن يمارسوا التملك ، والاستثمار دون قيد أو شرط .

وانطلق هؤلاء في الامصار واسماؤهم تملأ ارجاء العالم الاسلامي شهرة وقداسة ونفوذاً . فكان ان التف حولهم الناس في كل مكان ، وبدأ نفوذهم يتسع ويتحولون من الجو الديني الى الجو الدنيوي ، وامتلكوا القصور وتغيروا تغيراً كاملا . وهو الامر الذي كان عمر يحسب حسابه ويعمل جاهداً الا يقع وان تبقى الآخرة للمجاهدين والا يشتروا بها الدنيا ..

على ان هذا الاطلاق كان سياسة تتفق تماماً مع مفهوم اليمين للنظام الاجتماعي ولحرية التملك ..

وما ان مضى العام الأول من خلافة عثمان حتى كان الجو مهيأ لتوزع الولايات على حزب اليمين وعلى بني امية بوجه خاص . فعزل المغيرة بن شعبة عن ولاية الكوفة وعين سعدا بن ابي وقاص ولعل هذه هي صلته عوضاً عن صلة الزبير وطلحة على ان سعدا لم يكن من بني امية بل من زهرة ، ولهذا لم يمض عليه وقت طويل حتى عزل من ولايته وعين بدلاً منه رجل من امية هو الوليد بن عقبة ابن ابي معبط وهم من آل عثمان . والوليد هذا رجل مشكوك في اسلامه فقد ارتد ثم عاد فأسلم وكان دائماً محل شك من عامة المسلمين ومن

لنبي عليه السلام حتى انه نزل قرآن فيه « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » وهذا الفاسق هو الوليد بن عقبة نفسه .

وبالطبع كان ذهاب الوليد الى الكوفة مصدر قلاقل ومتاعب فلم يلبث عثمان ان عزله ليضع مكانه رجلا آخر من بني امية هو سعيد بن العاص . وعزل عمرو بن العاص من ولايته على مصر ليعين رجلاً آخر من أقاربه هو عبد الله بن سعد بن ابي سرح . وهو ايضاً من المشكوك في اسلامهم فقد كان من الذين سخروا من النبي وقاوموه أشد المقاومة واشتهر عنه انه كان يقول ساخراً من القرآن « سأنزل مثل ما انزله الله » . وكان من الذين اهدر الرسول دمهم لولا ان جاء به عثمان للرسول مسلماً .

وهكذا سار عثمان في الولايات هذه السيرة يعزل هذا ويعين ذاك ليسيطر حزبه تماماً على الحكم، كما ظهرت في عهده، وبالقرارات التي اصدرها، الملكيات الكبيرة ، وتحولت الدولة الثورية ذات الاهداف الاشتراكية الى نظام جديد للاغنياء وذوي العصبية من قريش عامة ومن بني امية خاصة .

ولم يسكت اليسار بل مضى يعبىء الجماهير ويهاجم الخليفة صراحة . ورأينا في هذه الحملات علياً يتصدر المعارضة ، ورأينا عمار بن ياسر وأبا الدرداء وعبد الله بن مسعود وأبا ذر الغفاري، ثم محمد بن ابي حذيفه، ثم محمد ابن ابي بكر ، ومالك بن الاشتر وغيرهم كثير ممن يكونون دعامات اليسار يهاجمون سياسة عثمان هجوماً عنيفاً .

وقد جاهر عمار بالهجوم على الخليفة ، كما جاهر ابو ذر باتهام الخليفة وعماله بالخروج على شريعة الاسلام وراح يحض الاغنياء على ان يطرحوا كنز المال ويعدد لهم الآيات القرآنية والسنة النبوية حتى نفاه عثمان الى الشام ليكون تحت

رقابة معاوية الذي خلص له حكم الشام كله في عهد عثمان،حيث كانت له ولاية دمشق وحدها في عهد عمر والذي كان يخوف به عثمان خصومه ومعارضيه . وعند معاوية وقف ابو ذر امام قصر الوالي الجديد « الخضراء » ليهاجم ذلك الاسراف في استغلال المسلمين وليهدد بأنه حتى الآن يوجه الخطاب الى الاغنياء وانه من غدة سيوجهه الى الفقراء ليقوموا بالثورة،وأوذي أبو ذر في سبيل ذلك ايذاء كثيراً حتى انتهى به الامر الى النفي وحرمانه من العطاء ففقد ابناءه واحداً واحداً وكان يمضي اياماً بلا طعام .

ومات ابو ذر في صحراء الربذة وحيداً مع زوجه العجوز لا يملك الا عنزه والقليل البالي من الثياب .

وما حدث لابي ذر حدث لغيره من حزب اليسار فكان هذا كله تنبيهاً للرأي العام ودعوة الى الثورة

وكان محمد بن ابي حذيفة ومحمد بن ابي بكر في مصر يدعوان بمثل ما دعا به ابو ذر،ويقال انعمار بن ياسر انضم اليهما في مصر ودعا دعوتهما ولعمار مكانة في الاسلام .

اما في الكوفة فكان هناك مالك ابن الاشتر وهو صاحب الخطاب الناري الذي وجهه الى عثمان يتهمه اتهاماً كبيراً في اقصاء سعيد بن العاص والي عثمان عن الكوفة . وسوف نرى مالكاً بعد ذلك في مواقفه العديدة الى جانب زعيم اليسار علي بن أبي طالب .

كان السخط عاماً في المدينة ... يجرؤ عثمان على اهانة علي بن ابي طالب كما يجرؤ على ضرب واهانة كبار الصحابة وخاصة صحابة النبي الأوفياء من الذين يرون في تطبيقات عثمان للاسلام حيدة عن اصوله .

كما كان السخط في الكوفة على اشده وفي مصر زاد الغليان واصبحت الثورة امراً لا بد منه حتى تأخذ اشتراكية الاسلام طريقها الى التنفيذ .

ولكن الأمر لم يكن سهلا .. فلقد ضرب الفساد في كل الارجاء واختلطت القيم السامية بالاخلاق الوضيعة واخترعت القصص لتجريح زعماء اليسار، وضعف من ضعف من المناضلين تحت تأثير المال والمناصب، وصار الصراع حول المناصب والجاه هو اساس كل شيء . واصبح المناضلون في دوامات بين التزام الجادة او المشي مع التيار. واستغل حزب اليمين هذا كله ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يفرق شمل اليسار تماماً. وفي نفس الوقت لم تكن العناصر المعارضة لحكم عثمان كلها من اليسار إذ كان هناك الذين فاتتهم المناصب او الثروة والاعطيات والصلات .

ثورة المصريين

لسنا نعرف كيف دبرت الثورة او على الأقل هل تمت بخطة وتدبير ام جاءت تلقائية نتيجة للسخط العام . ولكن المؤكد ان الرسائل كانت توجه من المدينة من كبار اصحاب النبي الى المقيمين في الامصار من المسلمين بأن الجهاد الحقيقي من اجل الاسلام لم يعد في فتح الثغور والامصار، بل في ادانة الحكم المنحرف واسقاطه واقامة حكم جديد على اساس سليم من كتاب الله وسنة رسوله .

ومن المحتمل ان هذه الرسائل كانت تتلى في المحافل ، او في اجتماعات سرية وتحدث اثرها المعنوي الكبير . فأصحاب هذه الرسائل لهم من المنزلة والمكانة في الاسلام ما لعثمان نفسه ان لم تزد .

والطريقة التي جاء بها المصريون الى المدينة تدل دلالة قاطعة على انهم قد فكروا ودبروا حتى لا يمنحوا للخليفة فرصة الاستنجاد بجيش من الشام او من غيرها لمقاومتهم . فقد خرجوا على انهم ذاهبون للعمرة . فاذا بهم يذهبون الى المدينة رأساً في عدد يقارب الألف ، وهناك يستقبلهم عثمان

ويجادلهم ويجادلونه فيعد انه سوف يقلع عن الاخطاء التي ارتكبها ، وسوف يعزل الولاة الذين نهبوا ثروة المسلمين ووطئوهم بالاقدام وفرقوا شملهم وذهب الوفد عائداً ، ومضى الوقت ولم يغير عثمان من سياسته ، ويقال أنه بعد ان وعد واستعبر غير رأيه كاتبه ووزيره ومستشاره مروان بن الحكم ابن عم عثمان وابن الرجل الذي حارب النبي حرباً عنيفة قاسية وآذاه حتى رفض النبي ان يساكنه مدى الحياة بعد ان اتى به عثمان الى النبي مسلماً ، اذ انه بعد اسلامه الخادع لم يكف عن ايذاء النبي والسخر به . على ان الأرجح ان عثمان صرف وفد مصر ريثما يفكر ويتأمل ولعله ظن ان هذه الثورة لن تلبث ان تنطفيء او لعله فكر في الانتقام من زعمائها . ويقال أن وفد المصريين امسك خادماً خاصاً للخليفة ومعه كتاب منه لعامله على مصر ان يفتك بقادة المصريين..

وهناك من ينفي هذه الواقعة من الكتاب المحدثين ، ولكن ماذا كان ينتظر الخليفة وقد بدت بوادر الثورة في شكل تجمعات لأول مرة ، واصبحت نذرها واضحة ؟ اذا كان سيفي بما وعد فله الحق الا يتخذ من الاجراءات ما يحميه من هذه الثورة ، وان كان اخذ بمشورة مروان بن الحكم ، ان كان ثمة مشورة ، فتنصل من وعده وترك الأمور تسير سيرها الأول — وهذا ما حدث — فكان المنطق يقتضي ان يأخذ حذره من ثورة مؤكدة ظهرت بوادرها في الجدل الذي ثار بينه وبين الوفد واضطر فيه ان يبذل الوعود .

ولعل عثمان لم يكن يتوقع ان تصل الثورة الى ما وصلت اليه فيما بعد ، ولعله كان يعتقد ان معاوية وعبد الله بن سعد وغيرهما سوف ينجدانه عندما يتحزب الأمر ، فكان في مركز قوة تجعله لا يأخذ حيطته الكافية . على كل حال فان تلك الرسالة المشكوك فيها ، ليست شيئاً بعيداً عن الاحتمال فقد كان عثمان ينفي الثائرين ضده ، وقد كان يأمر بضربهم ضرباً مبرحاً على علو مكانتهم في الاسلام ، وكان يرسل بعضهم لمعاوية حتى يعاقبهم ، ولعبد الرحمن بن خالد ليذلهم ويكسر شوكتهم . فمثل هذه الرسالة ليست بمستبعدة

وان كان البحث في صدق قصتها واختلاقها امراً غير ذي بال الا في تفسير رجوع الثوار مرة اخرى .

والذي حدث من المصريين انهم انتظروا حتّى يفي الخليفة بوعده فلم يف ولا شك ان اهل الكوفة وقد استطاعوا ان يعزلوا عامل الخليفة ويصروا على تولية ابي موسى الاشعري ، وقد عرفوا بما دار بين المصريين وبين عثمان ، وقد انتظروا كما انتظر المصريون ، فلما لم يتحقق شيء من وعد عثمان بدأوا يستعدون هم أيضاً لمواجهته ، وربما تم الاتفاق لخلعه . فحديث الخلع كان شائعاً ، وقد رد عليه عثمان في أكثر من مناسبة ، زاعماً أن قميص الخلافة قد كساه الله اياه ، فلا يملك خلعه عنه الا الله متناسياً ان الله قد وكل اختيار امير المؤمنين للمؤمنين ، وقد ترك لهم تصريف امور دنياهم .

وهكذا يتجه اليمين في كل العصور ، وفي مختلف الظروف الى نظرية التفويض الالهي لينكر كل حق للشعب ، وكل سلطة له في تسيير امور الحكم .
ومع ان الاسلام لم يكن قد مضى على انتصاره بفتح مكة الا خمس وعشرون سنة وان نظرية الشورى بدأت تختفي ونظرية المبايعة بدأت تبتز حتّى تضبح الخلافة حقاً الهياً لا علاقة له بالشعب . وقد رد الثوار عليه برد الاسلام ولم يعبأوا بقوله ولم تجد نظرية التفويض الالهي اي صدى .

تكاتف اذن اهل الكوفة وأهل مصر ، ومن المؤكد أن كثيرين من أهل المدينة تكاتبوا والمصريين فجاءت الوفود من الكوفة والبصرة ومصر وذهبوا الى المدينة ليخاصموا عثمان .

ويقال ان علياً بن ابي طالب والزبير بن العوام وغيرهما من كبار المسلمين قد عسكروا باصحابهم حينما علموا بمقدم الوفود مما دفع هذه الوفود الى اظهار العودة ، حتّى اذا سكن علي واصحابه الى بيوتهم عادوا فدهموا المدينة واحتلوها بغير قتال .

وهذه الواقعة مشكوك فيها ، وربما حرص على اختلاقها المتشيعون لعلي حتى ينفوا عنه الاشتراك في الثورة ، فالامور لا تمضي بهذا الشكل الهين . وليس من المعقول ان تنطلي مثل هذه الحيلة على كبار المسلمين والتي يقال أن الوفود قد احتالت بها لتحتل المدينة دون قتال .

ولقد ناصب علي العداء لعثمان ولامه وهاجمه ، بل رفض الوساطة بين الثوار وعثمان بعد أن توسط في وفدهم الأول فخذله عثمان إذ لم يف بعهده . انما الارجح ان علياً قد جلس يترقب ما يحدث محاولا ان يخفف من ثائرة الثوار وأن يوفق الى خلع عثمان دون اللجوء الى اراقة الدماء .

ولذلك كان يتصدى للثوار مهدئاً ومقنعاً كما كان يتصدى لعثمان ناصحاً وموجهاً حتى اذا اعتلى عثمان المنبر ليخطب في الوفود ، وكان عثمان أول من جلس من الخلفاء في موضع النبي على المنبر ، اذ أن ابا بكر عندما ولي الخلافة نزل درجة عن مكان النبي في المنبر ، وعندما ولي عمر الخلافة نزل درجة عن درجةأبي بكر ،اما عثمان فقد اعتلى المنبر حيث كانيقف النبي . عندما وقف عثمان ليخطب في الوفود عنف الثوار وقام قوم من انصاره يدافعون عنه فهب الثوار فاقعدوهم عنوة ، ثم انتهى الجدل الى ان حصبوا بعضهم بعضاً حتى اصيب عثمان نفسه . وغشي عليه وحمله اصحابه الى بيته ، فحاصر الثوار البيت الى أن وقعت الواقعة وقتل الخليفة في بيته .

ان الثورة اذا اشتعلت لا يستطيع احد ايقافها ، هذا ما حدث بالضبط فان علياً كان يريد الثورة ولكنه يريدها لخلع عثمان بعد أن فقد الثقة في اصلاح الأمر على يديه، على أنه من المؤكد انه إن لم يكن يريد أن تتطور الأمور إلى سفك الدماء وكان يكره ان تكون هذه سابقة في الاسلام لها ما يليها من آثار . ولذلك قد بذل جهداً حقيقياً للامساك بزمام الثورة وأرسل ولديه للحفاظ على حياة

الخليفة يدافعون عنه مع المدافعين . الا أن الحوادث انفلت عيارها ولم يكن بد من النتيجة الحتمية وهي القضاء على السلطان .

وقد اسفرت الثورة عن نتائجها ، وحققت هدفها الأول وهو تولية زعيم اليسار علي بن ابي طالب ، ليبدأ الاسلام يسترد سيرته الأولى وتمضي الثورة الاجتماعية في الطريق التي رسمها الرسول والتي لم يخالف عنها ابو بكر وعمر ، او التي اتجه الى تحقيقها لمداها الواسع عمر بن الخطاب في اخريات ايامه .

* * * *

ثورة اليسار

من الصعب أن نتابع التطور السياسي والاجتماعي في المجتمع العربي دون أن نمسك دائماً بالخيوط الأولى لطرفي الصراع . تلك الخيوط التي نسجت في في وقت مبكر جدا ، وقبل الدعوة الاسلامية ، والتي خلقتها الظروف الاجتماعية والفكرية في تلك المدينة التجارية الشهيرة مكة ... وعلى أساسها تشكلت قوى الصراع ، حتى انطلقت الدعوة الاسلامية لتكون عقيدة الفقراء والمستضعفين وسلاحهم الثوري ، ودليل عملهم في نضالهم من أجل حقوقهم وكرامتهم الانسانية .

والدعوة الاسلامية لا تختلف عن أي ثورة كُبرى من الثورات التي عرفتها الانسانية ، في أنها تنطوي على جانبها المادي ، كما تنطوي على جانبها الروحي ، وقد تبدأ الشرارة بمحركات قاهرة من الواقع المادي الاليم ، ولكنها تنطلق دائماً من هذه البداية المتواضعة لتصوغ فكرا انسانياً شاملا يمتد إلى كل نشاط انساني .

ان الثورات الكبرى لا تحدث لتعيد توزيع الثروة توزيعاً عادلا فحسب ، بل انها تبني هيكلاً روحياً وفكرياً وفلسفة جديدة تمضي بها البشرية جميعاً خطوات على طريق التطور .

ومن هنا تنتقل الثورات من بؤرة ميلادها الى كل مكان في الأرض . ولهذا

فكل ثورة حقيقية هي بالضرورة ثورة عالمية ، وما يناضل الانسان من اجله في مكة هو نفسه ما يناضل في سبيله المناضل الروماني في دولة القياصرة والمناضل الفارسي في دولة الأكاسرة ، وفي كل مكان . وما يحققه المناضل العربي في مكة من انتصار على القوى التي تغل انطلاق قوى الخير والتقدم ، هو بدء الثورة ، واشارة النضال لكل القوى المماثلة في أنحاء الأرض .

ولا ينقص هذا أو يضعفه محلية الأوضاع التي تنطلق منها الثورة ... لأن الثورة التي تستحق هذا الاسم ليست تعديلا في المراكز الاقتصادية والاجتماعية في بيئة معينة أو ظروف معينة ، بل تعديل جذري لحياة الانسان وفكرته عن العدل والحرية والكرامة ، ونزوعه الأزلي للاتصال بالفكرة العليا التي تجمع هذا كله ... فكرة الله ...

ان الانطلاق من الأوضاع الاجتماعية لا يعني انحصار الثورة في اطار هذه الأوضاع ،بل انه من الصعب أن نميز في العمل الثوري جانبه الاجتماعي من جانبه الفكري أو الروحي فكلاهما متداخل ، تداخل معنى الحق والحرية والعدل في معنى الله ورمزه ، وكل منحى الى الخير الجزئي هو منحى الى الخير المطلق .. الى الله .

وهكذا كان حزب العدل الاجتماعي في صدر الاسلام هو أيضاً الحزب الأكثر ايماناً بالاسلام والأقرب الى روحه ، والأشد تمسكاً بمبادىء الاسلام .

ولهذه الاعتبارات أيضاً كان أقل الأحزاب المتصارعة قدرة على التآمر وسفك الدماء والبت الحازم في الأمور ، حتى من أجل نجاح فكرة العدل والحرية . فمن كانت المثل العليا من أهدافه يستحيل عليه ان يتوسل اليها بأساليب تتنافى مع المثل العليا .

وهذا هو سر ضعف اليسار رغم اتساع شعبيته وغلبة جماهيره . ومن الناحية

الأخرى نجد أن الأحزاب التي تزدري الجماهير وتؤمن بالتسلط والامتياز والاستئثار بالثروة سريعة العمل مطلقة اليد والفكر . ترتكب ما تشاء من جرائم دون لحظة تردد واحدة مما يكسبها النصر السريع وهي في نفس الوقت تشترك في سمة واحدة فأغلب قادتها من الخصوم الأشداء للاسلام . ومن الذين استسلموا للدين الجديد حين لم يكن هناك بد من الاستسلام ، فهم من المهدر دمهم لما ارتكبوا من جرائم ضد الاسلام ثم عفا عنهم نبي الاسلام ، ومن الطلقاء ومن المتأخر اسلامهم .

واذا حاولنا أن نحصي أسماء قيادات حزب اليمين باستثناء عثمان بن عفان ونفر قليل من كبار المسلمين الأوائل وجدنا أن الذين تولوا السلطة فعلا في عهد عثمان ممن تنطبق عليهم صفة الطلقاء وأبنائهم أو ممن وقفوا من الاسلام موقف خصومة وعداء حتى كسرت شوكتهم وأعلنوا اسلامهم تقية ونفاقاً .

وقد ينساق الى قيادات اليمين بعض المسلمين الكبار الذين كانت أوضاعهم الاجتماعية قبل الاسلام وبعده أوضاعاً ممتازة من حيث الثروة والمكانة الاجتماعية وهؤلاء مع حسن اسلامهم لم يستطيعوا التخلص تماماً من تأثير أوضاعهم عليهم فتحددت رؤيتهم الاسلامية للعدل الاجتماعي وضاقت حدودها فكان هواهم مع أحزاب اليمين ، وكان اليمين يستغل شهرتهم وحسن بلائهم وتنافسهم فيما بينهم أحسن استغلال في شدهم اليه وضمهم الى صفوفه .

ولقد كانت للفتوحات الاسلامية الأولى تأثيرات واسعة النطاق على الجيش العربي الاسلامي ، اذ فتحت أمامهم الثغور واحتلوا من الممالك ما لم يحتله في عصرهم غيرهم من الأمم العريقة . ولهذا اتسعت امامهم الغنائم ، وبدأ الصراع على الاسلاب وتصدرت السياسة مكان الدين . ولكنها لم تستطع أن تتفرد بالتصرف دون ان تستند إلى مزاعم من الدين .

على أن عمر بن الخطاب رغم اعتداله وموقفه الوسط استطاع بمهارة فائقة أن يضع من التشريعات ما يجعل الملكية الفردية شيئاً وهمياً استناداً إلى ما استنه رسول الله والى روح الاسلام . فلم يكن للجيوش الاسلامية المقاتلة الا الأعطيات الدورية التي تصرف في ميعاد معلوم . أي اشبه بالمرتبات في عصرنا الحديث . وجعل عمر بن الخطاب الدولة فوق الجيش وفوق الأحزاب ، وصارت الملكية في الدولة الاسلامية ملكية جماعية يوزع دخلها أو ريعها على ابنائها حسب الفئات والنظم التي لاءمت العصر والظروف حينذاك .

الا أن الملكية الفردية لم تنعدم تماماً . وما كان هناك الوقت أو الظرف الملائم لينظر عمر بن الخطاب في هذه الملكيات الخاصة . وهي غالباً ملكية لمال منقول سواء في تجارة أو ابل أو نقود سائلة . وهو الأمر الذي يفسر ما تذكره كتب التاريخ عن سبائك الذهب الضخمة التي كانت تقطع بالفؤوس عند وفاة كبار الأغنيـــاء المسلمين وتوزيع تركاتهم على ورثتهم . فالمال المنقول لم تتجه اليه أنظار عمر بن الخطاب لأن همه الأول كان منحصراً في ضع المبادىء والأسس التي تحكم ملكية الأموال الثابتة ، وبالنسبة لهذه الأموال كالأراضي والمزارع والأنهار والمصارف وغيرها ، صارت ملكيتها للدولة يستغلها الفلاحون والعاملون فيها استغلال مالك المنفعة ، على أن يدفع ضريبة عنها لبيت المال نظير استغلالها .

ولقد ثار خلاف واحتجاج عقب الفتوح الكبرى حول توزيع الأراضي على الفاتحين باعتبارها من بين غنائم الحرب هي وفلاحيها ، وهو أمر لم يكن غريباً على العصر ، ولكن الاسلام بقيادة عمر وقف ضد هذا وجعل الأرض ملكاً للدولة والمنفعة لمن يفلحونها مع الاحتفاظ بحريتهم الكاملة سواء دخلوا في الاسلام أو لم يدخلوا .

ولم يبق عمر بن الخطاب من حق التملك بسبب الحرب الا بعض الأشياء المنقولة .

وكان عمر بن الخطاب يتجه في أخريات أيامه الى النظر في فضول الأغنياء وهو المال الذي يزيد عن حاجة الاستهلاك الفردي أو الأسري في اطار محدود لرجل يعيش حياة وسطاً ، ولكنه لم يحقق هدفه هذا وان صرح به قبل أن يقتل قتلته السريعة المفاجئة .

فالجيش نفسه وجد أن قوانين عمر تقف ضد طموحه الى الثروة ، وهي ثروة ضخمة مباغتة. تعتبر من وجهة نظر المحارب العربي المسلم حينذاك ، ووفقاً للعرف السائد مغنماً خاصاً له ... ونستطيع القول بأن تعاليم الاسلام وكبار المسلمين من خاصة أصحاب النبي ودعامات حزب اليسار الذين كانوا منبثين في هذه الجيوش، وكان القتال حلماً من أحلامهم وأمنية من أمنياتهم ، هذه التعاليم وهؤلاء الصحابة كان لهم دورهم في تثقيف الجيوش بالاسلام وفي نشر الوعي الاسلامي بينهم ، والا فكيف يمكن أن تصدر هذه القوانين من الخلافة ضد عرف سائد ولا تقاوم المقاومة التي يتوقعها المنطق .

ان بعض الكتاب يفسرون اذعان الجيش لهذه التعاليم بشدة عمر وحزمه ، وهذا سبب لا يكفي وحده لاقناع جيوش المسلمين البعيدة في الثغور المفتوحة ، والتي خاضت حروباً عنيفة ، ولاقت من صنوف الحرمان ما لاقت . انما السبب الأصيل هو القيادات الواعية والروح الاسلامية التي انتشرت في صفوف المحاربين .

على أن هذا كله لم يمنع من أن يكون الجيش ضيقاً بوجه عام من هذا الحرمان، وهو لم يمنع من أن يتكون من فرق هذا الجيش المقيمة في الثغور ارستقراطية عربية ، بحكم انهم السادة الفاتحون . وهو أمر يتناقض مع روح الاسلام الذي كان يرى في هذه الحروب غزوا في سبيل الله ، ودعوة الى الاسلام بالسيف بعد أن تفشل الدعوة بالقول والاقناع . فما أن تفتح هذه الثغور حتى يطبق العدل الاسلامي فلا يتميز عربي على اعجمي ولا أبيض على أسود الا بالتقوى .

وقد جرى عمر بن الخطاب على هذه السنة ما مكنته ظروف العصر ، وما مكنه ميله الى العدل الاجتماعي واتساع فهمه له .

لقد تغيرت الأوضاع الاجتماعية اذن . لم يعد طرفا الصراع الاساسين هما تجار مكة وأثرياءها ضد فقرائها ومستضعفيها ، بل أصبح من الاتساع بحيث شمل ملايين من البشر بمختلف طبقاتهم وميولهم ، وأصبح المقاتلون المسلمون فاتحين مسيطرين لا مجرد مستضعفين أو فقراء . وهذه هي الصعوبة في الأمر . فالدافع الاجتماعي لثورة اليسار اختفى تقريباً ، فما من رجل عربي مسلم من المستضعفين لا يستطيع أن يجاهد في سبيل الاسلام في جيش من هذه الجيوش ، أو لا يستطيع أن يغنم من غنائم الحرب ما يحققه له جهاده وبلاؤه ، وأخيراً فهو يضمن عطية دورية تكفل ثبات الدخل واستقراره .

ودعوة اليسار الى تطبيق العدل الاجتماعي لا تجد لها سندا الا فيما يستطيع أن يقنع به الفكر والعقيدة عقل الانسان : واخلاقيات معينة يكونها الدين الاسلامي في نفس معتنقيه ، ولكي تحدث هذه الاخلاقيات أثرها ينبغي أن يصل الانسان الى أعلى مراتب الفكر ، وأعلى مراتب الخلق الانساني ، وهو أمر لا يتوافر في جميع الناس .

واستغل اليمين في خلافة عثمان هذه الأوضاع فوسع فيها ما استطاع وأغدق على المحاربين وهم القوة الضاربة في أي ثورة ، وترك الخلاف المذهبي يأخذ مجراه ، مطمئناً إلى أن الغلبة في النهاية لحكم الأوضاع الاجتماعية والضرورة على القيم الروحية والاخلاقية .

وقد كان المسلمون جميعاً يؤمنون بأن علياً أهم رجل في عصره وبين أقرانه من قادة المسلمين ، ومع ذلك تجاوزوه دون أسف يذكر حين اسندوا الخلافة

الى عثمان . ان حدة الصراع الطبقي اختفت ليحل محلها صراع مذهبي أو صراع نظري مجاله الاقتناع الفكري وحده .

وجاء اليمين في خلافة عثمان فأطلق الملكيات ولم يقم عليها حدوداً ما ، واصبح الحكم اليميني مستقراً لولا أن اليمين تجاوز قيادته الحزبية الى نعرة قبلية فمكن لآل ابي معيط ولآل أمية على رؤوس غيرهم من القبائل ، وأصبح يحصر القيادة والسلطة في تلك القيادات التي كانت تتصدر فيما مضى قيادة المشركين ضد المسلمين .

في هذه الفترة تحول الصراع من صراع طبقي فكري ، إلى صراع قبلي عنصري ، من صراع من أجل أيديولوجية جديدة في صف الجماهير إلى صراع على المناصب ومنافسة عليها .

ومع ذلك فقد كان هناك الفقر والغنى أيضاً ، وكان هناك المعدمون وأصحاب الثروات الطائلة ، ولكن الازدهار العام قضى على حدة هذا الخلاف وان لم يقض على الخلاف نفسه .

ووجد اليسار أنه يدعو للثورة أنماطاً متعددة من الناس . الاثرياء المبعدون أو غير المنتمين الى أمية وأحلافها ، كبار الصحابة الذين لم يعد لهم يد فيما يجري من أمور الدولة ، وفي النهاية الجماهير التي لم يكفل تماماً حقها في الرزق .

ونستطيع القول بأن اليسار وجد حوله حلفاء لم يكن يتوقع أن يعقد معهم حلفاً ، بل ولم يكن يريد أن يعقد معهم حلفاً . ولذلك سنرى دائماً أن كثيراً من زعماء الانقلابات في هذا العصر يتأرجحون بين اليمين واليسار في سرعة عجيبة ، وسنجد أن من قاتل الحسين في كربلاء وشتت العلويين فيما بعد . رجل حارب الى جانب علي في بداية ثورة اليسار .

وفي هذا الصراع كان اليسار يأمل آن يمسك بدفة الحكم ويوجهها وجهتها الاسلامية الصحيحة ، ويبدو أنه لم يحسب حساب كل هذه القوى المتعارضة التي انضمت إلى صفوفه لأغراض متفاوتة .

وحين نتحدث عن بداية ثورة اليسار سنجد ان غالبية كبار المسلمين في المدينة كانوا يضيقون بسيرة عثمان وحاشيته في الحكم ، رغم أنهم ينتمون طبقياً إلى اليمين ، ورغم أن عثمان أغدق عليهم من بيت المال الثروة الوفيرة . سنجد أن طلحة والزبير من بين المحرضين على الثورة ضد عثمان ، ثم ينقلبان فجأة بعد مبايعة علي بالخلافة فيحاربان ضده . وسنجد أن عائشة تهاجم عثمان وتحض على الثورة ضده ، ثم تتحول الى حرب علي مع طلحة والزبير .

لم تكن القوى الثائرة ضد عثمان متوحدة فكرياً ، ولم تكن دوافعها للثورة دوافع مشتركة .

والى جانب هذا فالثورة لم تمتد الى قلب البلاد المفتوحة أو الى شعوبها . فحين نسمع أن الذي بدأ الثورة على عثمان هم المصريون لا يخطر على بالنا الشعب الذي يسكن مصر منذ قديم الزمان ، بل قادة المسلمين الذين استقروا في مصر . ومن البديهي أنه لم يكن من المستطاع أن تدخل شعوب الدول المغلوبة في هذا الصراع السياسي ... أولا لان غالبيتها لم تدخل في الاسلام في أول عهود الفتح ، وثانياً لأنها لم يمض عليها وقت طويل يتحقق فيه الاندماج في العالم الجديد بحيث تصبح ركنا أساسياً تؤثر فيه وتتأثر به . وكذلك الأمر بالنسبة للسواد أو العراق كله فما كان أبناؤه يلعبون دوراً ما في السياسة شأنهم في ذلك شأن أبناء مصر وأبناء الشام الى حد كبير .

على أن الأمر لا يخلو من ظهور بعض أبناء هذه الولايات في الجو السياسي ولكنه ظهور محدود الأثر ويكاد يكون معدوم القيمة .

وهنا يتردد اسم عبدالله بن سبأ وهو شخص كان يهودياً وأسلم ، تصوره

كتب التاريخ على أنه كان الشيطان وراء الفتنة التي قتل فيها عثمان ، بل وراء الأحداث جميعاً ... وقد وقف منه الكتاب مواقف متعارضة ، فمنهم من ينكر وجوده أصلا ، ومنهم من يعتبره أساس كل ما جرى ، بل أساس ما دخل في الاسلام من مذاهب غريبة منحرفة .

وعبد الله بن سبأ شخص خرافي بغير شك ، فأين هو من هذه الأحداث جميعاً وأين هو من الصراعات الناشبة في هذا العالم الكبير المتعدد ... وماذا يستطيع شخص مهما تكن قيمته أن يلعب بمفرده بين هذه التيارات المتطاحنة . ان الأحداث السريعة العنيفة المتلاحقة لم تكن في حاجة إلى شخص ما حتى ولو كان الشيطان نفسه، لأن أصولها بعيدة الغور وقوة اندفاعها لا قبل لأحد بالسيطرة عليها أو توجيهها . فضلا عن تشابكها وتعددها بما لا يدع لأي قوة أن تزيدها تعقداً .

وساذج بغير شك التفكير الذي يتجه إلى خلق شخصية خرافية كهذه ليعطيها أي اثر فيما حـــدث من أحداث . وأكثر سذاجة منه من يظن لهذا الرجل تأثيراً ما على كبار الصحابة ، ومنهم أبو ذر الغفاري نفسه الذي لم يقبل مناقشة من أبي هريرة المحدث المعروف وضربه فشجه قائلا في ازدراء « اتعلمنا ديننا يا ابن اليهودية » انما كل ما حيك من قصص حول عبدالله بن سبأ هو من وضع المتأخرين فلا دليل على وجوده في المراجع القديمة فضلا عن سخافة التفكير في احتمال وجوده أصلا .

* * *

الكتل المتصارعة اذن لم تكن متجانسة ولم تكن من عناصر غير العناصر العربية . فأهل مصر الثائرون هم من قادة العرب الذين أقاموا فيها ، وأهل الكوفة والبصرة والشام كلهم سواء في أنهم رجال الجيش أو السياسة من العرب الذين أقاموا فيها وليسوا هم من أبنائها الأصليين .

ولقد يكون زعماء اليسار ابعد القادة الاسلاميين بعامة عن الثراء،وهم كانوا كذلك فعلا ، ولكنهم لم يكونوا فقراء عن عجز أو بحكم وضع طبقي، انما بحكم ايمانهم وتحمسهم للروح الاسلامية ، فالامام علي نفسه لم يكن يملك شيئاً حتى وهو في الخلافة . وكان كذلك أعضاء حزب اليسار رغم توليهم المناصب الكبرى في الدولة .

الصراع اذن لم يكن في أساسه طبقياً ، انما كان صراعاً أيديولوجياً مذهبياً لتغليب وجهة نظر على وجهة نظر أخرى . وهو أشبه بالصراع الذي يتم بين القيادات بعد تحقق الثورة الاصلية ، فيقسم هذه القيادات الى اتجاهاتها المعتدلة أو اليسارية أو اليمينية بصرف النظر عن اتجاه الثورة الأم نفسه .

فلاجدال في أن استيلاء اليمين على السلطة بقيادة بني أمية ، هو انحراف يميني ولكنه ليس ثورة مضادة ... ولقد عطل كثيراً من الاصول الاسلامية ولكنه لم يهدم الاسلام ذاته .

والذي حدث ان اتجهت أكثر من قوة سياسية الى اسقاط عثمان،وكانت الكتب تنطلق من مكة الى الثغور لتحث قادة الجيش والقادة السياسيين على أن يتجهوا الى مكة لاسقاط عثمان وخلعه ، وهذه الكتب من عناصر مختلفة ليست من اليسار ، بل لم تقف بعد ذلك الى جانب اليسار .

ومن الصعب — ولم يمض على الاسلام الا فترة وجيزة — أن يتنازل المسلمون بسهولة عن المبادىء الاسلامية ، فكان الداعون إلى خلع عثمان مختلفي الاتجاهات ، ولكنهم جميعاً مسلمون خلصاء يريدون أن يعود الاسلام الى أصوله الحقيقية .

وكان علي بن أبي طالب يمثل في نظر غالبية المسلمين الرجل الوحيد الأقرب الى روح الاسلام وأصوله الصحيحة ، ولكنه في نفس الوقت يمثل السياسي

المتشدد أو على الأصح الأكثر تشدداً من عمر بن الخطاب نفسه ، وهو الأمر الذي جعل الكثيرين من القادة والطامحين والمستفيدين ينظرون إلى تولية علي بن أبي طالب نظرة حذر وتردد . وأصحاب المصالح لم يستطيعوا أن يحتملوا عمر ابن الخطاب فأولى بهم أن يتخوفوا من علي وأن يعملوا جهدهم ألا يصل إلى الخلافة .

وحين نتحدث عن التشدد فلانعني درة عمر التي كانت لا تفارق يده ولا صرامته المعروفة ، فهذا مظهر سطحي ، ولا أظن ان عمر بن الخطاب كان يحكم المسلمين بدرته أو بيده ، انما بقوة ايمانه وبقوة التزامه للاصول الاسلامية وهو الأمر الذي يتشدد فيه علي اكثر من تشدد عمر . ولقد احتمل المسلمون كل القوانين التي أصدرها عمر ولم يثوروا ضده ، وان كانت جماعة اليمين التي أصابتها هذه القوانين في طموحها الى الثراء والجاه ، كما أوشكت أن يصيبها فيما بين ايديها من مال ، وكما اصابتها فعلا في حقها في المعركة والغلبة والسيطرة ، بادرت الى التخلص من عمر على ما بلغه من سلطان .

وعلى ذلك فمجيء علي إلى الخلافة هو أمر دونه القتال .

وليس هناك شك في أن المعاصرين لهذا العهد من المسلمين كانوا يدركون هذا كله ، وكانوا يعلمون الكثير عن تفاصيل حياتهم ، أكثر كثيراً مما يذهب غالبية المتأخرين الذين سجلوا التاريخ ، كانوا يعلمون ما أحيط بمقتل عمر من غموض ، وكانوا يعلمون مواقع الاحزاب وما تمثله والا ما تشكلت الأحزاب أصلا.وكان الاتجاه الى علي وحزبه اتجاهاً متبصراً ومدركاً لكل هذه الخلفيات .

وما اثير بعد ذلك من نقاش طويل ولجاجات لا نهاية لها حول افضلية علي لم يكن في حساب المعاصرين ، انما كانت الأحداث تشكل كل شيء وتربط باليسار من تتفق ميوله أو مصالحه معه بلا لبس أو غموض ، وتربط

باليمين من تتفق ميوله أو مصالحه معه.ولم تكن لنظرية الوراثة أو القرابة لبيت النبي أثر في هذا الترجيح أو غيره ، بل كان ما يمثله هذا الحزب أو ذاك من اتجاهات هو المحك الأول في تجسيع الأنصار والمتشيعين .

والعوامل التي دفعت إلى الثورة على خلافة عثمان عديدة بتعدد أطرافها وبعضها كان خفياً استتر وراء خروج عثمان ومعاونيه على الأصول الإسلامية، وهو الشعار العام الذي اتخذته الثورة،وهو الموضوع الذي ناقشه أهل المدينة مع عثمان في المسجد ، وهو نفسه الذي ناقشه أهل مصر حين وفدوا على المدينة في المرة الأولى يطلبون من عثمان أن يحقق الحق ويتبع ما يوصي به الاسلام من مبادىء .

وتحت هذا الشعار الكبير ، العودة الى المبادىء الاسلامية الصحيحة من حيث اعطاء كل ذي حق حقه ، ومن حيث تساوي المسلمين في الحقوق ، ومن حيث اشتراكية الاسلام التي عمل على تحقيقها رسول الله من قبل ودعا إلى اتمامها علي بن أبي طالب وحزبه من بعد ، وسار في سبيل تحقيقها عمر ابن الخطاب في الاجراءات التي اتخذها كالمصادرة أو التأميم للاموال الثابتة . كل هذا كان شعار الثورة ، وفي كل مناسبة تجادل فيها المعارضون مع عثمان كانت المناقشة تدور حول هذه المعاني ، بل ان كتب التاريخ تحفظ لنا الكثير من المناقشات التي دارت بين عثمان وأبي ذر الغفاري قبل الثورة حول اشتراكية الاسلام ، كما تحفظ لنا ما جرى بين علي بن أبي طالب وعثمان في هذا النطاق أيضاً ، وكذلك المناقشات بين عمار وعبد الله بن مسعود وغيرهما من زعماء اليسار وبين عثمان :

هذا هو المعنى العام الذي التفت حوله الثورة وتذرعت به ، وهو الذي كان يمثل اتجاه الرأي العام لدى المسلمين ، ومع ذلك فقد كانت تختفي تحت هذا المعنى أغراض أخرى كثيرة ، ومصالح تتفق مع أصحاب هذه النظرة

في اسقاط عثمان وتختلف معها في أنهم لا يريدون أن يمضي العدل الاجتماعي الى أقصى مداه .

فهناك الذين حرموا من المناصب لاستئثار بني أمية بها . ومنهم عمرو بن العاص نفسه الذي عزل عن ولايته ليتولاها بدلا عنه عبد الله بن سعد بن أبي السرح قريب عثمان . وما يظن أحد أن عمرو بن العاص كان موافقاً لسياسة علي وحزبه . فشهرته في قضية التحكيم بين علي ومعاوية تمحو هذا الظن . ومواقفه جميعاً تنأى به عن أن يكون ذا هدف اجتماعي في خلع بيعة عثمان . وهناك معاوية نفسه الذي أثار تقاعسه عن نجدة عثمان تساؤل الكتاب والمؤرخين . فسواء كان هذا التقاعس مبيتاً ومدبراً أوجاء نتيجة عدم تقدير لحقيقة الأمور . ومنهم أيضاً طلحة والزبير اللذين كانا يطمعان في الخلافة . وهما قد راسلا القادة في الثغور ليعودوا . فانه كان يفتح ثغرة الى الخلافة امام معاوية الى المدينة حيث يحتاج الكفاح في سبيل الله اليهم فيها اكثر من حاجته اليهم في الثغور .

أغراض كثيرة أخرى مناقضة للشعار العام الذي سارت به الثورة . ولكنها جمعت اصحابها حول الثورة . وتكاتفت جميعاً لخلع بيعة عثمان .

كان الجميع يحاولون الاستفادة من الموجة الثورية العارمة ، كل حسب ظروفه وقدراته .

اما بالنسبة لعلي وحزبه فان الأمر كان مختلفاً ، فهذا الحزب هو الذي تولى المعارضة الهادئة في عهد ابي بكر وعهد عمر ، ثم المعارضة العنيفة في عهد عثمان ، فقد كان اعضاء هذا الحزب لا يعملون في الخفاء بل كانوا يخطبون جماهير المسلمين في المساجد والأماكن العامة مهاجمين هذا العهد ومذكرين اصحابه بوجوب العدول عن سيرتهم فيه ، لمخالفته كتاب الله وسنة رسوله . وهؤلاء المعارضون هم أنفسهم الذين مكنوا للقوانين التي أصدرها عمر أن

أن تنفذ وأن تصبح حقيقة واقعة لا يجسر من آذتهم من الناس على عدائها أو مقاومتها . ولقد انتشروا في كل البقاع ،انتشروا في الشام نفسها ولاقوا فيها عنتاً شديد ، وقد عرفنا كيف أوذي أبو ذر في الشام ، ولا نظن أن أبا ذر كان الداعي الوحيد ضد هذا الحكم ، فقد رأينا رجالا غيره يجهرون في حضرة معاوية بالجدل الحاد فلا يملك معاوية الا أن يسكت ، بل أن يتمشى معهم تقية وانتظاراً للحظة المناسبة . وما حدث في الشام حدث في مصر وفي الكوفة والبصرة ، بل في المدينة أيضاً .

واذا كانت هناك مكاتبات سرية بين كبار القادة المسلمين وبين قادة الجند في هذه الأمصار ، فاننا لا نستطيع التأكد من أن الثورة دبرت ورسمت خطوطها بواسطة حزب علي .

من المؤكد أن قادة الثورة قد دبروها وحسبوا حسابها ، فهذا واضح من طريقة خروجهم من مصر ، وواضح من طريقة عودتهم المفاجئة .

أما أن علياً كان على علم بهذا التدبير ومشتركاً فيه فهذا ما لا يستطيع أحد اثباته أو نفيه . ولكن رجلا كعلي لا يمكن أن يرسل ولديه الحسن والحسين ليكونا إلى جانب عثمان في حصاره في بيته ، وهو مدبر للثورة عليه .

لقد جاهر علي عثمان بالرأي المضاد القوي ، في أكثر من مناسبة ، بل وبمناسبة وفود الثوار ، الا أنه لم يخرج من هذا النطاق الى المشاركة الايجابية في اسقاطه . لقد رفض الوساطة ، ورفض أن يقف في وجه الثوار ، وكان واضحاً أنه يؤيد ما يريده الثوار . أما أنه حض على قتل عثمان فهذا ما لم يثبت ، بل على العكس لدينا من أقواله ما ينفي هذا أن صحت نسبة هذه الأقوال اليه . ولدينا من المعرفة بسلوكه ما يتناقض مع احتمال وجود أي اتفاق سابق على وقوع الثورة .

والراجح أن الثوار من حزب اليسار قد خفوا للعمل ، وأنهم عملوا وفي اعتبارهم أن يرشحوا علياً للخلافة . أما علي نفسه فلم يحط بهذا التدبير علماً .

ولا يعيب علياً أن يشترك في الثورة بل على العكس يعيبه ألا يشترك فيها وألا يوجهها التوجيه الصحيح ، فما الاسلام نفسه الا ثورة ، وما كفاح الرسول العنيد الا مثال للثورية الايجابية في كل خطوة من الخطوات .

على أن الاشبه بأخلاق علي بن أبي طالب هو ما فعله فعلا من نصح شديد ومن جهر بالخصومة لعثمان . وهو الذي يعلم حق العلم معنى الحديث الشريف « من رأى منكم منكراً فليقومه بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الايمان » فعلي كزعيم كبير ورجل مسموع الكلمة بين المسلمين كان يجاهر بلسانه، وكان يؤجل الثورة بالقوة على عثمان لمنزلة هذا الخليفة في الاسلام ، ولعله لم يفقد الأمل في أن يعود إلى الجادة ، وقد جرب علي هذا كله في خلافة عمر ووجد استجابة : مهما تكن حذرة ومتلكئة فانها كانت مثمرة ومبشرة بكل خير .

وعلي كان يحذر الفتنة والاسلام لم يزل غضاً والعهد بحروب الردة ليس بعيداً ، والخلق الاسلامي لم يتأصل بعد في كل النفوس .

على أن المقطوع به أن علياً رأى أن تخلع بيعة عثمان ووافق عليها ، أما أن يخلع عنوة وبالقتل فهذا ما لا سند له . ولولا أن تمسك عثمان بقميص الخلافة حتى الموت ما وقعت الواقعة وما قتل الشيخ في بيته هذه القتلة الشنعاء . فما زال الثوار يطلبون خلع عثمان ، وما زال أكثر الصحابة حتى من أعضاء مجلس الشورى يسكتون على هذا الطلب دليلا على الموافقة ، وما زال عثمان يقول « لا أخلع قميصاً كسانيه الله » حتى حدث أن ثارت ثائرة الثوار ولم يجد الخليفة نصيراً يؤيده في الثبات على الخلافة ، فرمى أنصاره صحابياً شيخاً من خلف أسوار البيت فقتلوه وكان دماً بدم ، وصعد الثوار إلى حجرة عثمان فبادروه بالطعن وكان أولهم محمد بن ابي بكر الصديق نفسه فيما تروي بعض الروايات .

ولم يستشعر أحد — حينذاك — أي غضاضة فيما حدث ، بل على العكس بلغت حماسة الرأي العام في المدينة، سواء من أهلها أو من الثوار الوافدين، حدا جعلت دفن عثمان يتم ليلا وفي حذر شديد وفي مكان غير لائق .
ورشح الثوار علياً للخلافة ، وطلبوا البيعة له .

ولقد قيل في هذه المبايعة الكثير ، فان الثوار عرضوا البيعة على علي فتردد، وقيل ان أهل المدينة من المهاجرين والانصار فكروا ليختاروا بين الأربعة الباقين : طلحة والزبير وسعد بن ابي وقاص وعلي . أو هم قد فكروا في في الثلاثة المتنافسين : طلحة والزبير وعلي لأن سعداً اعتزل الفتنة وآثر ألا يكون طرفاً فيها .

وهذا يصور الثورة على أنها كانت عشوائية تماماً ، وأنها لم تكن تندرج تحت سياسة معينة تهدف الى اصلاح ما أفسده عثمان ، أو إلى سياسة هي على النقيض من السياسة التي اتبعها عثمان .

فالثورة منذ أيامها الأولى كانت تطلب إلى عثمان أن يخلع نفسه ، فليس من المعقول الا يكون لدى الثوار — عندئذ — اسم الخليفة الذي يحقق أهداف الثورة .

واذا كان هوى أهل مصر — وهم الذين قاموا بالجانب الأكبر في الثورة — مع علي ، فما الذي يعنيه هذا التردد ، وذلك التفكير الذي أشار اليه المؤرخون ، بل هم زعموا أن علياً تردد فألح عليه الثوار من مؤيديه . بل قيل أيضاً أن أهل الكوفة وكان هواهم مع الزبير قد حاولوا أن يجعلوا الخلافة للزبير . وقد يكون الزبير قد دبر واتفق مع أهل الكوفة سلفاً على أن يبايعوه بعد خلع عثمان. وقيل أيضاً أن هوى أهل البصرة كان مع طلحة، وسوف نتبين أن هناك اتفاقاً مسبقاً مع بعض أهل البصرة وطلحة . ولكن الثورة بقيادة المصريين وبموافقة غالبية أهل المدينة من المهاجرين والأنصار كانت واضحة الأهداف منذ أول

انتفاضة لها ، الأمر الذي يبرر ذلك الاتفاق السري بين طلحة وأهل البصره وبين الزبير وأهل الكوفة . فما لم يكن واضحاً أن الاتجاه نحو علي ما كانت هناك حاجة لكل هذه التدابير .

ومنطق الحوادث يقتضينا أن نرفض الرأي الذي يقول بأن أهل المدينة وأن الثوار بعد مقتل عثمان وقعوا في حيرة لا يدرون لمن يبايعون بالخلافة ، وأن علياً قد تردد هو أيضاً وأن الثوار قد ألحوا عليه ، وأنه لم يقبل الا حين رأى المهاجرين والأنصار يلحون عليه أيضاً .

المعقول أن الثورة كانت تتجه من الوهلة الأولى للرجل وللحزب الذي يمثل اتجاهاتها ، وأن المعارضين لخلافة علي حاولوا أن يرتبوا أمورهم بحيث لا تتحقق هذه الخلافة . ولكنهم لم يملكوا أن يفعلوا شيئاً ازاء تتابع الحوادث وسرعتها . والمتوقع في هذه الحالة أن يتجه الثوار الى علي فيبايعوه ، وأن يتجه غالبية أهل المدينة فيبايعوه وقد اشتركوا فعلا مع الثوار في معارضة عثمان وطلب خلعه ، ثم اشتركوا فيما حدث من حصار لبيت عثمان ولا نستطيع بالتالي أن نخرجهم من نطاق الثورة بشكل من الاشكال .

والروايات تقول أن البيعة لعلي أعلنت بعد مقتل عثمان بخمسة أيام ، وبعضها يقول أنها أعلنت بعد ثمانية ، المهم أن الخلافة ظلت شاغرة خمسة أيام على الأقل ، وأن االغافقي قائد الثوار المصريين تولي السلطة موقتاً حتى يبت في أمر الخلافة .

ذلك أنه بعد مقتل عثمان ظهرت التيارات المتعارضة على حقيقتها، فسعد ابن أبي وقاص اعتزل ونحن نعلم مطامعه القديمة في الخلافة أيام الاختيار بين علي وعثمان ، ويبدو أنه لم تكن له قوة يحسب حسابها في التنافس على الخلافة حين قتل عثمان فآثر ان يعتزل فلا يحسب عليه شيء من حساب الفتنة وما وراءها ورأينا. كذلك أن عبد الله بن عمر قد اعتزل أيضاً وهو أمر يتفق مع

خصاله الشديدة التدين ، أما طلحة والزبير وقد اشتركا في التحريض على خلع عثمان فقد أبيا أن يبايعا بل طلبا البيعة لنفسيهما .

ولا شك أنه كان لكل من هؤلاء الأربعة وثلاثة منهم ممن رشحهم عمر للخلافة بعده ، انصار ومؤيدون من المهاجرين والانصار ، ولا شك أيضاً أن علياً كان يريد أن يبدأ عهده بموافقة الجميع ، مما اضطر زعماء الثورة أن يقوموا باتصالات سريعة لضمان البيعة الاجماعية لعلي وهذا هو السبب في مضي تلك الأيام الخمسة أو الثمانية التي استغرقتها المفاوضات .

وما قيل من أن علياً امتنع عن قبول البيعة التي عرضها الثوار قد يكون تخريجاً مبالغاً فيه ، فالواقع أن الثورة كانت تعني علياً وتقصده،ومنذ اجتماعات أصحابه السرية ومنذ ألقيت الخطب في المساجد ، ومنذ ارتفع صوت المعارضين بالنقد الصريح .

ولم يكن مرغماً على قبول البيعة له كما قيل في بعض الروايات ، فهذا يعارض تماماً كل مواقفه السابقة ، ولا يقبل بالتالي ما قيل من أن الثوار قد هددوه بالقتل ان هو رفض . كل ما هنالك أن علياً أراد أن يستوثق من موافقة الجميع وعلى رأسهم المهاجرون والأنصار .

وما ان أمكن التوفيق بين غالبية الآراء حتى قبل البيعة ولم يستثن من ذلك أحد الا سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ، وأرغم الثوار طلحة والزبير على المبايعة لعلي .

ولكن هذه المبايعة كانت محفوفة بالمتاعب ، فالشام في يدي معاوية ، ولم يسمع لها رأي بعد ، ولم يمثلها أحد من الوفود الحاضرة ، وموقف معاوية معروف سلفاً .

على أن الأخطر من هذا كله ظهور المتناقضات التي اخفاها الاجماع على

خلع عثمان ، فاليمين ظهر على حقيقته معارضاً لعلي . والطامعون في المناصب ظهروا على حقيقتهم ، وبدا ان الأمر يسير من تعقيد الى تعقيد .

ومع ذلك فقد بادر علي إلى العمل وهو محيط بكل هذه الأوضاع محاولا أن يبت فيها بتاً سريعاً ، فعين من الامصار الرئيسية الكوفة والبصرة ومصر والشام واليمن رجالا من اليسار أو ممن يرضى عنهم اليسار فتسلم الجميع زمام أعمالهم فيها عدا عامل الشام الذي رده جنود معاوية ، فقرر علي أنه لا مناص من حرب معاوية وبدأ الاستعداد للقتال .

وما كان علي يملك أن يجند الجيوش لو لم تكن الغالبية له ، أو لو لم يكن وراءه الرأي العام لجماهير المسلمين .

ولم تتقاعس قوى اليمين ، بل بدأت العمل بكل قواها ، فاذا بطلحة والزبير يلتقيان في مكة ، واذا بهما يدبران لحرب علي في البصرة ، واذا بالسيدة عائشة تنضم اليهما تدفعها إلى ذلك عوامل قد تكون شخصية اكثر مما هي موضوعية . فليس هناك من يستطيع ان يضع هذه السيدة الجليلة في أي تيار من التيارات المتصارعة من حيث وضعها السياسي او الاجتماعي ، انما هي لم تكن تضمر لعلي الحب ، فله موقف شهير في حادثة الأفك ، اذ لم ينبر بالدفاع عنها وتبرئتها بل طلب الى الرسول طلاقها « فالنساء غيرها كثير » كما كانت فاطمة زوج علي احب بنات الرسول اليه تنازعها على قلب الرسول ، وقد انجبت فاطمة الحسن والحسين فكانا أحب ذرية النبي اليه ، كما أن أم محمد بن أبي بكر أخيها أصبحت زوجة لعلي بعد وفاة ابي بكر وكل هذه امور تجعل الصلة بين علي وعائشة ليست على ما يرام ، حتى لو كان هواها السياسي مع علي . وهذه الاسباب هي التي اوردها الكتاب جميعاً وهي أسباب لها وجاهتها ، ومن الممكن أن تكون هي وحدها وراء الموقف العدائي الذي وقفته عائشة من خلافة علي .

وقد تم الحلف بين طلحة والزبير وعائشة ، وأوشك ان يتم بين زوج أخرى من أزواج النبي هي اخت عبد الله بن عمر لولا ان ردها عبد الله عن ذلك .

وهكذا فتحت جبهة جديدة غير جبهة الشام ضد الخلافة في الايام الأولى مباشرة لاعلانها ، وهو امر لم يحدث لأي خليفة فيما عدا حروب الردة وهي أمر مختلف تماماً عما حدث هنا . ذلك أن خلافة عمر مضت هينة رفيقة لا تعترضها الا معارضة واعية صبورة هي معارضة اليسار الاسلامي ، حتى أوشك الحكم والمعارضة جميعاً أن يلتقيا . ثم جاءت خلافة عثمان فلم تواجهها معارضة إلا مواجهة الرأي لا القوة إلى أن تطورت الحوادث وأصبح خلعها بالثورة أمراً لا مفر منه .

وما هذا الاندفاع في حرب الخلافة الجديدة الا دليلاً على ما يدركه خصومها من نواياها السياسية وهي في الواقع حرب مصالح ، حرب طاحنة لا تعرف التسويف .

وكان على الخلافة أن تضرب بسرعة أيضاً وأن تصفي الموقف قبل أن تتعدد الاضطرابات ويفلت منها الزمام .

وقرر علي أن يفرغ من معارضة طلحة والزبير أولاً فحشد قواه وبدأ حروب التصفية .

وواجه المسلمون موقفاً جديداً ، هو الحرب فيما بينهم ، وبدأ النقاش حول الصواب والخطأ في هذه الحرب ، وجوازها من الناحية الشرعية . بل تراكمت كل الدوافع الأساسية للثورة ، ولتولي قيادتها للسلطة للتمسك بشكليات القانون ولم ينج من هذه المناجاة بعض كبار المسلمين ، وتلقف اليمين تلك الدعوى وراح يعمقها ، ثم راح يفتح ثغرة جديدة من نفس النوع هي القصاص من قتلة عثمان ، وبالتالي أثيرت دعوى ما اذا كان الامام قتل ظالما أو مظلوماً وبناء عليه فهل يقتص من قتلته أم يعتبر ما وقع قصاصاً عادلا .

وألح خصوم الثورة على الخليفة في النظر في تلك القضية ويقال ان علياً أوشك أن يقع في هذا المحظور فهو اما أن يعتبر عثمان قتل ظالماً وهو أمر لا يجب أن يدمغ به خليفة وصحابي قد قبضه الله اليه ، وهو في الوقت نفسه لا يستطيع أن يرى في الثورة عملا متجافياً مع حق جماعة المسلمين في أن أن يخلعوا الخليفة اذا ما أخطأ .

والأرجح أن خصوم الثورة كانوا يناورون للايقاع بين الامام وبين الثورة فيما يعلمون عنه من التزام للجادة والاندفاع اليها .

على أن الأمر لم يمض كما يشتهي خصوم الثورة فان علياً لم يفتح تحقيقاً بالمعنى السليم ، فهو قد سأل محمد بن أبي بكر عما اذا كان قد اشترك في القتل فأنكر محمد فصدقه علي ولم يمض في التحقيق إلى أبعد من هذا .

وقد طويت القضية بشكل سريع ودون تبرير ، والذي ساعد على ذلك هو الانتفاضة التي قام بها طلحة والزبير بالتحالف مع عائشة ، وأجلت تلك الأمور حتى تصفي متاعبها مع الخصوم المحاربين .

على أننا سنلقى دائماً أن هذه القضية لم تطو ، وأن اليمين استغلها أحسن استغلال ، وأن حياء اليسار منعه من أن يعلن صراحة أن عثمان قتل ظالماً ، ومنعه من أن يقدم التبرير القاطع على هذا ، مما ترك المجال للتذرع بحادث الفتنة في حرب علي بعد ذلك .

ولو أتيح لليسار أن يحسم في هذه القضية ، وأن يحسم في شرعية الحرب ضد خصومه لما وجد اليمين ثغرة ينفذ منها لهز الخلافة من أساسها القانوني .

كما أن اليسار كان عليه أن يجري من الاصلاحات وأن يصدر من القوانين ما يشعر جماهير الثورة بأن الحق في طريقه لأن ينفذ ، وأن الاسلام الأصيل

بدأ يعود مسيرته الأولى. الا أن حرب طلحة والزبير جاءت سريعة، كما كان تحفز الشام دافعاً للاستعداد له بل ومبادرته .

ومع ذلك فإن علياً وحزبه بدأوا العمل فعلا ولكن في هذه الظروف الشديدة السوء .

وسوف نرى بعد ذلك كيف واجهت الثورة وهي في الحكم خصومها وكيف تغلبت عليهم - ثم كيف انتكست وكيف ربح اليمين الجولة الاخيرة .

مثالية اليسار وانتهازية اليمين

قد يعني اليسار في بعض معانيه الحديثة التطرف والعنف ، وربما يعني أيضاً التمسك بحرفية النصوص والتشدد فيها ، وقد يعني أيضاً الجمود ورفض التجديد واتهامه بالمراجعه أو الانحراف أو التحلل . ولكن اليسار في هذا البحث ، هو النزعة الاشتراكية ؛ بكل ما فيها من مثاليات انه يسار متشدد فيما يعتقد انه الحق ، ولكنه انساني قبل كل شيء . فأهدافه هي اقامة العدل واسعاد الناس واحترام حريتهم وتقديس آدميتهم ، ولذلك لم يتوسل هذا اليسار بأي وسيلة لا تتفق مع اهدافه ، فهو يرفض اصلاً فكرة أن الغاية تبرر الوسيلة ، فمهما تتعقد الأمور ومهما تلجئه الضرورة فانه لا يتوسل الى غايته العادلة بوسيلة غير عادلة .

وكان هذا شأن اليسار الاسلامي ولعلنا نتساءل بعد ذلك ، أهذا مصدر قوة أم مصدر ضعف ؟

فسوف نلتقي ونحن نعرض لسيرة اليسار الاسلامي وهو في السلطة بمواقف لعلي بن أبي طالب يعدها بعض المؤرخين مظهر ضعف أو وقوعاً في الخطأ أو غير ذلك من الأوصاف التي وصف بها هذا الزعيم الاسلامي العظيم بالفعل. وهو أمر محير فعلا ، فلو أن علياً بن أبي طالب كان أقل التزاماً لمثالياته الانسانية لكسب جولته مع اليمين ، ولكن ما الذي كان يبقى من اشتراكيته بعد ذلك...

ان النزعة الاشتراكية في الاسلام لم تمت بموت علي ، فثورات اليسار لم تنقطع بعد مقتله ، بل امتدت عبر التاريخ الاسلامي كله ، تكتسب في كل عصر

صورة جديدة تناسب هذا العصر ، وقد بقيت جذوة العدل الاجتماعي متوهجة طوال العصور ،رغم تعدد الفتوح الاسلامية،وزيادة الثروات،ورغم الأساليب العديدة التي لجأ اليها اليمين الحاكم المتسم بدهاء قلما عرف تاريخ الشعوب الأخرى مثيلا له . فقد ألفت الكتب تحت عينه وتوجيهه لتدمغ خصومه بكل صفة، بل شكلت فرق مزيفة تنتسب الى اليسار حتى تدمغه بالانحراف ، بل والكفر وكثيراً ما تجد هذه الفرق المزيفة أنصاراً لها من أبناء الشعب المضللين فتتضخم وتزداد ايغالا في المروق ، حتى يختلط الأمر على المؤرخ الحديث فلا يستطيع أن يميز نزعة اليسار الحقيقية من النزعات الملفقة .

ولهذا أصبح التاريخ الاسلامي غامضاً شيئاً ما ، يجتهد فيه المؤرخ اجتهاده كله ، ليخرج بالحقيقة ، أو ما هو أقرب إلى الحقيقة .

ورغم هذا الحشد الهائل من التراث بما فيه من صدق وبما فيه من افتراء ، فان تلك الجذوة التي فجرها الاسلام ، على يدي نبيه وصحابته الأولين ثم على يدي الخليفة علي بن أبي طالب لم تنطفىء أبداً ، وكان المسلمون دائماً يستشعرونها في كل عصر ولو بشكل غامض وكلما أحسوا ضغط الحكام وظلمهم .

ولهذا كانت قابلية الشعب العربي في كل زمان لفكرة الاشتراكية،ولهذا لم تتوقف تلك النزعة في كل العصور عن أن تظهر في شكل من الأشكال كثورة اجتماعية تريد أن تنتصف للمستضعفين من أصحاب السلطان والثراء من المستغلين والمستأثرين .

ولقد قلت من قبل ان الثورة ليست تغييراً في المراكز الاقتصادية فحسب ، بل هي قبل كل شيء تغيير جذري في وجهة نظر الانسان الى الكون . هي نظرة جديدة اكثر اتساعاً الى الكون الغامض ، والى علاقات البشر بعضهم بالبعض

الآخر والى الطريق الأمثل الذي يجب أن تختطه البشرية في مسيرها الطويل الابدي إلى أن تكون أكثر فهماً وادراكاً لحقيقة وجودها . وكل ثورة في التاريخ البعيد والقريب لم تأت بنظام اقتصادي توزع به الثروة توزيعاً جديداً . بل جاءت قبل ذلك بفلسفة جديدة . تستوي في ذلك الديانات السماوية والثورات الحديثة حتى الثورة البورجوازية ، والثورات الاشتراكية الحديثة .

ولقد يفلح علي بن أبي طالب أو غيره من عظماء التاريخ البشري في أن يقيم مجتمعاً اقتصادياً يسوده العدل الاجتماعي بالقياس إلى عصره ، ولكن على أسس وبأساليب لا تتفق مع فكرة العدل وأهدافها فلا يلبث هذا البناء أن يتغير ولا تبقى منه الا تلك الأساليب التي تصبح تراثاً رهيباً يتجنبه البشر فيما يلي ذلك من العصور .

ولو لم يسر علي بن أبي طالب سيرته المثالية هذه أكانت تبقى تلك الجذوة مشتعلة وكامنة في النفوس ؟

ومن الغريب انه ما من فكرة عظيمة تبقى في الأرض وتؤتي ثمارها الا بالتضحية والفداء ، بل بالعذاب أقسى ما يكون العذاب وهذا النوع من الرجال العظماء هو الذي قدر عليه أن يخوض التجربة حتى النهاية وأن يمتحن بكل أنواع العذابات دون أن يتردد أو يتراجع وكان دوره الوحيد أن يكون مثالا في التاريخ البشري كأنه علامة من علامات الطريق .

واذا خرجنا من هذا التعميم إلى واقع الحياة في عصر علي وما فيه من صراعات فسوف نجد أن كل شيء يرشحه لأن يلعب دور الفدية والمثال .

فقد كان كل طريق أمامه مفتوحاً إلى هذه النهاية الأليمة المشرقة أشد ما يكون الاشراق .

ولهذا فان علياً لعب دوره الجليل كأعظم ما يلعب الانسان الفائق دوره في التاريخ .

فها هوذا يتسلم السلطة في مجتمع تغيرت فيه المراكز الاقتصادية تغيراً مفاجئاً ، فبعد أن كان العرب من القبائل التي تحيا حياة خشنة صاروا فاتحي أكبر امبراطورية في عصرهم يأتيهم الخراج من أركان الأرض ويتنافسون في الاستيلاء عليه ويتصارعون في الوثوب الى مراكز السيادة والحكم . لم يعد المجاهدون من المهاجرين والأنصار فئة مغلوبة على أمرها فقيرة في مواردها وحقوقها وأمنها ، بازاء سطوة رأس المال المكي وعصبية القبائل الحاكمة - بل سادة وحكاماً حتى بين خصومهم الطبقيين الأقدمين ، ونتيجة للفتوح صار كل رجل من ثوار المهاجرين والانصار يحتل مركزاً كبيراً أو صغيراً في هذه الأرض الواسعة ذات الخيرات العديدة المفاجئة بل ان الخصوم الطبقيين سرعان ما تلاقوا وتساووا في الوضع الاجتماعي . وزالت حدة الصراع الطبقي ليحل محلها صراع على الغلب والسيطرة والانفراد بالسلطة واتخذ هذا الصراع شكله المذهبي أو العقائدي . أكثر مما اتخذ شكل صراع طبقي.

في هذا الظرف المتغير جاء علي بن أبي طالب الى الخلافة .

ماذا كان يستطيع أن يقدم لعرب الجزيرة المنطلقين في كل مكان من عدل اجتماعي .

نعم كانت هناك فوارق طبقية والا ما قام أبو ذر في المدينة ثم في الشام يدعو إلى تحريم كنز المال ويدعو إلى توزيعه على المسلمين .. نعم كانت هناك حقوق مسلوبة يدفع عنها عمار بن ياسر وأبوالدرداء وعبد الله بن مسعود وغيرهم من زعماء اليسار ، ولكن رزق هؤلاء الفقراء الذين دفعوا عنهم كان مكفولا – على الأقل – الى الحد الأدنى ، فالقادرون على القتال كان لهم حق في مغانم الحرب ، كما كانت لهم أعطياتهم أيام السلم إلا أن يكون الفقراء هم من أهل الشام أو من أهل الأمصار الأخرى المغلوبة الذين دخلوا في الاسلام . وهو أمر لا يستبعد لأننا نجد ان اليسار الاسلامي قد أراد أن يوقع القصاص بعبيد الله بن

عمر لقتله مولى من الموالي تطبيقاً لنصوص القرآن ، كما رأيناه يثور في الكوفة على زياد بن أبيه والي معاوية لانه لم يقتص لذمي مسيحي من قاتله المسلم وآثر الحكم بالدية ورأينا أن هذه الثورة آتت بثمرتها فقتل المسلم قصاصاً بقتل الذمي .

ان الأمثلة على هذا كثيرة فاذا كان اليسار الاسلامي ينتصف لغير المسلمين من أبناء الأمصار المفتوحة فان أولى به أن ينتصف لفقراء المسلمين من أبناء هذه الأمصار .

لقد تحول المهاجرون والأنصار الى سادة بغير شك ، وجرت الأموال بين أيديهم بغير شك، ولكن المسلمين لم يكونوا هم المهاجرين والأنصار فحسب بل كثيرون غيرهم من سكان البادية والقبائل اليمانية والمستوطنة في الأمصار المفتوحة وغيرهم من الأعداد الوفيرة التي كونت قاعدة المسلمين في ميادين القتال .

كان هناك اذن فقر وكان هناك غنى ، بل لعله كان هناك غنى فاحش قد لا يصدقه المعاصرون، فأم ثروات بعض كبار المسلمين كانت تعد بالملايين وكان هناك الفقر الذي جعل صحابياً كبيراً كأبي ذر يفقد أبناءه بسبب سوء التغذية حين قطع عنه عطاؤه أو حين أسرف على نفسه بالصدقة على الفقراء بكل مال يقع في يده .

على أن القوى التي كانت تتصدى للقيادة وتتصارع على المناصب كانت على شيء من السعة في الرزق مع تفاوت كبير أو صغير في الدرجات، وصراعها فيما بينها بما تمثله من اتجاهات الى اليمين أو إلى اليسار لا تحركه الا العقيدة أو لا تحركه الا العقيدة في المقام الأول . فاليساريون كانوا يرون أن الاسلام يسوي بين الناس في الحقوق واليمينيون كانوا يرون أن يستأثروا بالمال كله ما دام جاءهم عن مغنم في حرب أو من تجارة واسعة بل في أحيان كثيرة حتى اذا جاء من بيت مال المسلمين نفسه .

وكان حكام اليمين يعتقدون أن بيت المال هو حق لهم يوزعونه على الأعوان وعلى انفسهم ان ارادوا .. وكثيراً ما كانوا يريدون ذلك .

ففي الأيام الاخيرة من حكم عثمان كان ولاته يأخذون لانفسهم من بيت المال ما يريدون دون رقيب . حتى اذا احتج خازن بيت المال وهو لا يحتج عادة الا اذا كان من هذا النوع من المسلمين الذي نطلق عليه اليسار الاسلامي ، اضطهدوا هذا الخازن او طردوه كما فعل عثمان نفسه مع عبد الله بن مسعود وقال قولته الشهيرة انما انت خازن لنا يعني انه ليس خازناً للمسلمين بل للخليفة وأعوانه .

والواقع أن خازن بيت المال فيما عدا الرجال من أمثال عبد الله بن مسعود كان له نصيب في هذا المال متواطئاً مع الوالي نفسه، أو غير متواطىء . وما أكثر ما حمل الوالي المعزول كل ما في بيت المال وذهب به إلى مكة أو المدينة وابتنى له هناك قصراً واشترى الجواري والقيان واستقبل الشعراء وقضى حياة التقاعد الموقت أو الدائم في دعة ولهو دون أن يحاسب على ذلك من السلطة المسئولة حتى يبدو أن هذا صار عرفاً بين السادة الحاكمين .

وليس هناك شك في أن الاسلام الحقيقي كان يكره هذا ويحاربه، وآية ذلك، اللجاجات الكثيرة التي قامت حوله بل والثورة على عثمان تلك الثورة التي أدت إلى وصول علي بن أبي طالب إلى الحكم .

وحين نحصي أعمال علي بن أبي طالب في مجال توزيع الثروة والاضافة التي اضافها الى اجراءات عمر بن الخطاب سنجد انه لم تمتد يده إلى الأموال التي استولى عليها انصار الحكم العثماني فهو لم يفرغ ساعة من الزمان ليعيد توزيع الثروة ويثبت اساس النظام الاقتصادي .

كل ما استطاع أن يضيفه هو توزيع ما يرد إلى بيت المال على المسلمين في

حينه ، فلا يختزن عن المسلمين شيئاً منه حتى روي أنه كان يوزع الخيط والابر وكان يعتز كثيراً بأن يكنس بيت المال ويرشه بعد تفريغ ما فيه ويصلي فيه ركعتين .

فهو هنا يطبق رأي اليسار الاسلامي الذي عبر عنه هو لعمر بن الخطاب من قبل وعبر عنه ابو ذر لعثمان ولمعاوية من بعد ، بأن المال مال المسلمين وانه حق لهم يوزع عليهم ولا يحتجز دونهم او يستأثر به بعضهم ويحرم منه البعض الآخر .

على أن اليمين كان يعلم المدى الذي سيسير اليه علي بن أبي طالب ، فهو يعلم فحوى نظريته في الملكية او على الاصح فحوى نظر الاسلام إلى الملكية ، فقد تحاجى بها كثيراً مع عثمان وتحاجى بها انصاره من امثال عمار وابي ذر فقالا انه لا يحق للمسلم أن يمتلك مالا الا من نتاج عمل يديه لا من عمل آخرين ، وانه فوق ذلك لايصح أن يختزن المسلم ما يزيد على حاجته وحاجة عياله . فالكنز شيء هاجمه الاسلام أشد المهاجمة ، وكثيراً ما كانوا يرددون الآية الكريمة : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم » . إلى آخر الآية . فكل مال فائض أوكل فضل مال ينبغي أن يتخفف منه صاحبه إلى غيره من المسلمين المحتاجين فلا يجوز أن تشبع وجارك جائع أو تكسى وجارك عار ، وبالتالي فلا ينبغي أن تنعم بأطايب الحياة من سكنى القصور وجارك المسلم يسكن العراء أو يأوي الى بيت متداع . ان المال يقسم على المسلمين حتى تكفى حاجتهم جميعاً ، فالمال في النهاية مال المسلمين وكل ما على الأرض من خيرات هي هبة الله للناس يتصرف فيه خليفة المسلمين باتفاقهم ويأمرهم ولصالحهم جميعاً .

هذه المبادىء الثلاثة البسيطة هي جماع كل فلسفتهم الاشتراكية وهي في نفس الوقت تمثل الخطر الذي يهدد به حكم علي هؤلاء الذين أثروا ثراء فاحشاً

واكتنزوا من الذهب والفضة ما حذرهم منه القرآن وما خوفهم من أنه سوف تكوى به جباههم وظهورهم يوم القيامة .

كان اليمين يعلم أن هذه مبادىء علي وأنه سوف يطبقها عاجلا أو آجلا وانه إلى جانب ذلك سوف ينفذ سنة رسول الله من حيث تساوي البشر في الحقوق فلا فضل لعربي على عجمي ولا فضل لأبيض على أسود الا بالتقوى. وان أمر المسلمين لا ينفرد به رجل مهما تكن مكانته بل ان الأمر شورى بينهم وان في الحياة قصاصاً إلى آخر تلك المبادىء الاسلامية السامية التي تكفل إلى جانب العدل الاجتماعي الحرية والكرامة والأمن والطمأنينة .

وان يكن طلحة والزبير قد ثارا بعلي وخلعا بيعته لطمعهما في الخلافة فأنهما لا شك كانا يكرهان ايضاً ما يتصوران انه مغالاة في تطبيق تلك المبادىء الاسلامية أو يخشيان خشية كامنة وغامضة لا تسفر عن نفسها حتى لهما من هذه المعاني واحتمال ظهورها الى واقع الحياة على يدي علي .

حكم علي اذن يهدد المراكز الاقتصادية الممتازة ويهدد أصحاب الوظائف وطلاب المناصب ممن اشتركوا في الثورة على عثمان لانهم يعلمون أن علياً سيختار لهذه المناصب من يعتقد انه يستطيع ادارتها على المبادىء الاسلامية خير ادارة، وبمعنى آخر فلن يكون لوالي علي مغنم في بيت المال أو في أي مجال آخر ، اللهم الا العمل الدائب في خدمة المسلمين وتأمين معاشهم .

وهو امر لا يغري أحداً من الطامعين لأنه يتطلب منه أن يتخلى عن كل أبهة السلطة ويفرغ المنصب من كل هالاته .

فأصحاب المراكز الاقتصادية الممتازة مهددون بتغيير مراكزهم بحيث لا يمتازون على احد، وطلاب المناصب أحسوا بفراغ المنصب حتى أن ظفروا بمنصب وكان علياً يطلب من كل مسلم أن يكون مسلماً على طراز رسول الله أو على طرازه هو حتى يتحقق الاسلام في صورته المثلى .

وحين دعا طلحة والزبير إلى خلع البيعة وجدا من يساندهما في مكـة ومن يخرج معهما الى السواد ووجـدا في السواد من ينتظرهما ويؤيدهما . والغريب أنهما لم يظهرا حقيقة مقصدهما من خلع البيعة لعلي فهما قد خلعاها لطمعهما فيها من ناحية ، وابقاء على الأوضاع الاجتماعية القائمة من ناحية أخرى . كان هـذا هو موقفهما الحقيقي وكان أيضاً موقف مؤيديهم وأنصارهم فيما يخص المساس بالأوضاع الاجتماعية . أما ما أعلناه فهو القصاص لعثمان من قاتليه الذين سكت عنهم علي ، بل انهما أتهما علياً نفسه بالتآمر على قتل عثمان متناسين أنهما كانا من بين المحرضين على الثورة على عثمان وأن علياً نفسه وقف من أحدهما موقفاً متشدداً حين جمع حوله الثائرين يحرضهم على عثمان .

وهذه هي الحجة التي استعملها طلحة والزبير ومعهما عائشة وهي نفس الحجة التي استعملها معاوية وانصاره من بعدهما . ولم يظهر أحد من خصوم ثورة اليسار السبب الحقيقي لتلك الثورة العنيفة التي أشعلوها منذ الأيام الأولى لخلافة علي بن أبي طالب .

وقد ظل السبب الحقيقي كامناً في النفوس لا يجسر أحد على أن يفضحه ، بل لعل علياً بن أبي طالب لم يتنبه إلى أن يفضحه والأرجح أن كلا المتصارعين من اليمين واليسار لم يكن يدرك في وضوح انه صراع بين فكرتين متضادتين احداهما تؤمن بالعدل الاجتماعي أساساً صلباً من أسس الاسلام والأخرى تؤمن بأن الاسلام عبادة وتأدية للفرائض بما فيها الزكاة أما غير ذلك فهو نافلة وحسبهم ان يقولوا لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله .

وان تستتر الأغراض الحقيقية وراء حجة ظاهرة أبعد ما تكون عن الحقيقة أمر اتبعه الساسة من قديم الزمان واتبعه هذا الجيل من العرب ومضوا فيه يتجادلون على أساسه مع خصومهم بينما الهدف الأصيل مخفي في طي الكتمان ولا تلبث المجادلات حول الحجة الوهمية تتراكم حتى تغطي فعلا على الحقيقة .

وهكذا كان الحال حين وصل طلحة والزبير ومعهما عائشة الى البصرة اذ ما كادوا يستقرون حتى أرسل لهم عثمان بن حنيف عامل علي بالبصرة وفداً يجادلهم فيما يريدون فاذا بهم يجيبون بأنهم يطالبون بدم عثمان وباعادة طرح أمر الخلافة شورى بين المسلمين ، وزعم طلحة والزبير انهما بايعا عن اكراه وان بيعتهما لهذا لا تجوز .

ولقد تصدى لهما من الحاضرين من أهل البصرة كثيرون مذكراً بتلك الكتب التي كانت ترد على البصرة منهما بالتحريض على عثمان فكيف عادا اليوم يطالبان بدمه ، ولكنهما وجدا قوماً في البصرة يصدقونهما ويجادلون خصومهم على أن الأمر انتهى إلى هدنة فقد سمح الوالي ببقاء الثائرين بالبصرة لا يعكرون ضفو أمنها حتى يأتي علي بن أبي طالب الذي كان قد عرف انه يتحرك من المدينة لملاقاتهم .

الا أن الثائرين لم يفوا بعهدهم فسرعان ما هاجموا عثمان بن حنيف بليل فقتلوا من قتلوا ممن حوله . ثم نتفوا لحيته وشاربه وهو يؤدي صلاة العشاء بعد أن أوسعوه ضرباً وأطلقوه إلى علي واستولوا على بيت المال .

ومع ذلك فحين استقبل علي عامله عثمان بن حنيف بحالته هذه لم تثر به حمية الغضب فيحمل بجيشه على خصومه وينكل بهم . بل كظم غضبه وواصل مسيرته إلى البصرة حتى اذا شارف حدودها توقف وارسل الرسل مرة أخرى إلى الثائرين يجادلونهم بالحسنى .

الا ان ما في النفوس شيء ، والاقتناع بالحجة والرأي الصائب شيء آخر ، فلم تلبث الأمور ان تعقدت ورفض الثائرون منطق الحجة وصمموا على القتال وحتى هذه اللحظة لم يخرج على طوره فأمر احد رجاله بأن يرفع المصحف بين الفريقين ليجعله حكماً بين المتخاصمين .

والجدير بالذكر ان علياً دعا هذا الفتى الذي سيرفع المصحف وقال له انه

قد يقتل بنبال الثائرين ولم يتردد الفتى الا قليلا ثم رفع المصحف وتقدم الصفوف حتى وقف تجاه جيش الثائرين ورفع المصحف بكلتا يديه وكان ما توقعه علي اذ رشق الفتى بالسهام حتى سقط قتيلا .

وهكذا كانت الحرب التي اشتهرت بواقعة الجمل حيث وضعت عائشة في هودجها وأحاط بها الثائرون يدافعون عنها ، تلهبهم حماسة افتعلها القادة افتعالا مستغلين مكانة ام المؤمنين متوقعين ما سيحدثه وجودها بينهم من اثر . وقد حدث ما توقعوه اذ قاتل المقاتلون بحمية وحماسة حتى أمر علي بنحر الجمل فسقط الجمل واجتمع اصحاب علي حول هودج عائشة فنقلوه في مكان أمين وكان بينهم أخوها محمد بن أبي بكر .

وانتهت المعركة بهزيمة المتمردين وسقط طلحة والزبير قتيلين .

ويقف علي بن أبي طالب بين قتلاه وقتلى المتمردين عليه في حالة من القلق والتمزق تشبه حالة ابطال التراجيديا فبين خصومه رجال من الذين أبلوا بلاء حسناً في الاسلام من القادة والابطال والمؤمنين عن صدق . فبم يقتل هؤلاء ؟ وكيف لا يرون الحق وهو واضح وهم مسلمون وهو يريد خير الاسلام وحقيقته وهو أعلم المسلمين جميعاً بحقيقة الاسلام بشهادة واجماع المسلمين . فلماذا تقع الفتنة ؟ ولماذا تقع تلك المآسي .

وها هوذا يتأمل القتلى من الجانبين متصدع القلب ويهمهم متوجهاً إلى الله في ألم شديد :

أشكو إليك عجري وبجري .

شفيت نفسي وقتلت معشري . وكان أن أصدر امره بدفن القتلى من الجانبين وبألا يجهز أحد من أفراد جيشه على جريح أو يطارد أحداً من الفارين .

وأضاف إلى ذلك أنه ليس في هذه الحرب مغنم للمنتصر ، فما كان يملكه

المتمردون هو ملك لهم أمر بجمعه في المسجد وأرسل المنادي ينادي بأن من عرف شيئاً له فليأخذه .

ولسنا نعرف مثالا لذلك في أي عصر من العصور فقد احتج جيش علي لأن غنائم معركته حرمت عليه وقال بعضهم أحل لنا دمهم وحرم علينا أموالهم ، ولكن علياً لم يلق بالا إلى هذا الاحتجاج فقد كان يضع مبادىء عليه أن يقرها حتّى ولو صادفت احتجاجاً أو اعتراضاً .

ولكن الاخطر من هذا موقفه الحزين المتألم فقد انتقل هذا الموقف إلى الجميع وإذا بالحزن يعم الجانبين ، كل يذكر قتلاه وجرحاه ، ويذكر تلك الحرب الغريبة التي يقتتل فيها فريقان من المسلمين . أما حزن علي فكان حزناً متبصراً حزناً من أجل هؤلاء الذين قتلهم قبل هؤلاء الذين قاتل بهم ومن أجل الرسالة السامية التي تتعرض للفتنة ، وهي في قمة نجاحها وانتصارها . من أجل هذا العمى الذي أصاب فريقاً من المسلمين فلم يروا دينهم حق الرؤية ولم ينظروا إلى أبعد من المطامع الشخصية ولعل حزنه اتجه إلى نفسه فقد كتب عليه أن يكون المقاتل الاخير والمسلم الذي يضرب أحسن المثل من أجل أن تبقى الرسالة وتتجه الى اتجاهاتها الصحيحة ان أكبر الأعباء قد ألقي على كاهله أن يقف أمام عواطفه الجياشة بطبعها وان ينتصر للقضية حتّى النهاية وأن يجرع ألم هذا الانتصار حتّى النهاية أيضاً .

أما عامة المسلمين فقد انعكس حزن علي في صدورهم الى أقرب مصادر هذا الحزن الى خيبة الأمل في المغنم الى فقدان الانتصار لمعنى البهجة والفرح ثم إلى نتاج المعركة من قتلى ضانغين وانتقل اليهم حزنه ندماً وضياعاً ومرارة . وسوف يصبح العراق منذ الآن ، ثم منذ مصرع الحسين اللاانساني الرهيب موطن العذاب الثقيل وبلد الندم المؤبد .

انتهت هذه المعركة لتبدأ المعركة الأكبر معركة الشام بقيادة معاوية الرجل

الذي يمثل النقيض تماماً هو أيضاً شخصية فريدة جمعت فيه كل خصائص الرجل الرجل الذي لا تشل حركته أية قيمة من القيم . انه ابن أبي سفيان الشهير . وابن تلك المرأة التي مضغت كبد حمزة عم النبي حين سقط قتيلا بيدي عبد لها . في نفس معاوية ارادة الانتصار الشخصي والغلب فيه قسوة الأعصار وعبقرية القدر الغاشم الذي يدبر ويرسم ، انه القطب الأزلي الكامن في الكون قطب السلب المطلق الذي يصطرع في قلب الانسان كما يصطرع في فلب الكون . ان السلب كان في كل شيء وهو يتجه اتجاه التيار المتسلل إلى جبلة من البشر اقرب إلى استيعابه والنهوض به ، كما يتسلل الايجاب المطلق إلى الجبلة التي أهلت لاستيعابه ولقد تصادم القطبان السالب والموجب بقدر ما تتيح الامكانية البشرية أن تكون سلباً مطلقاً أو ايجابياً مطلقاً .

لقد تربى معاوية في حجر أبي سفيان رأس القوى الرجعية في مكة وتربى علي في حجر النبي بكل ما تحمله النبوة من فداء وتضحية وايجابية للخير المطلق .

ولو كان معاوية مكان علي لما أرسل وفاوض وحض على الصلح وهو يملك القوة التي تستطيع تحقيق الارادة. ولو كان مكانه عقب واقعة الجمل لملأ قلبه الفرح ولأمر بالتمثيل بجثث خصومه ولأعدى انصاره بزهوه وفرحه فلم تظهر بادرة حزن في صفوفه ولأباح لهم مال المهزومين وأولادهم ونساءهم ، وبدلاً من أن يوزع ما في بيت المال على المسلمين جميعاً ، لاختار دهاتهم ورؤساءهم وأغدق عليهم فضمنهم إلى جانبه .

اما علي غير معاوية فقد كان اعتماده كله على ان يوقظ الجوانب الايجابية في صفوف رجاله مهما كانت صعوبة ذلك . كان يريد أن يصنع رجاله على مثاله لا أن يصنع بهم نصراً فحسب ، ولقد استطاع أن يهيئهم ويعدهم لأن

يكونوا هؤلاء الرجال ، وكان يأمل أن يجابهوا الأزمات فينمو ما غرس فيهم وتثبت الخصال التي بثها في صدورهم .

ولكن علياً علمهم أنه لا ينبغي لامام المسلمين أن ينفرد بالرأي ولا أن يكره أحداً عليه . علمهم معنى كرامة الإنسان من حرية في إبداء رأيهم ومن انطلاقة في التفكير والاختيار . فما كان يبرم أمراً بل أن يستشير وأن يبين حجته . علمهم أن يخالفوا رأيه فيناقشهم ويجادلهم فاذا كانت الاغلبية لهم عدل عنه وترك التجربة العملية تكشف الرأي المصيب من الرأي المخطىء . كان علي يضع اهتمامه بالانسان وقلبه في المقام الأول ، كان يتجه إلى داخل الانسان يبنيه ويؤكده أما عناصر اليمين فكانت تتجه الى الخارج ، الى الحوادث واحتمالاتها والى مواطن الضعف في الانسان لتنميها وتستغلها . كان الناس في نظر اليمين الذي يرأسه معاوية أعداء وشهوات وكان الناس في نظر اليسار الذي يمثله علي شخصيات انسانية تكمن فيها نوازع السمو والحرية وينبغي تنمة هذه النوازع وابرازها .

وكان الانتصار الحقيقي الذي ينشده علي هو سمو النفس الانسانية واتصالها بالمبادىء الاسلامية اتصالا أصيلا كأنه غريزة أو فطرة ، ولهذا كان انتصاره في موقعة الجمل هزيمة لتلك المبادىء كلها . كان فشلا في رسالته تلك أن يخلق الشخصية الاسلامية في قلب كل رجل .

وحين تحرك جيش علي لملاقاة معاوية سبقته النذر والوفود والمجادلات والرسائل . كانت رسائل علي متسمة بالود والحض على التزام الصواب .

وكانت رسـائل معاوية سباباً واقذاعاً .. عرفنا ذلك في نظرك الشزر وقولك الهجر وتنفسك الصعداء ، وابطائك عن الخلفاء في كل ذلك تقاد كما يقاد الجمل المخشوشي . ولم تكن لأحد منهم (الخلفاء) أشد حسداً منك لابن عمتك (عثمان) . وكان أحقهم ألا تفعل به ذلك لقرابته وفضله ..

فقطعت رحمه وقبحت حسنه وأظهرت العداوة . وأبطنت له الغش وألبت الناس عليه حتى ضربت أباط الابل اليه من كل وجه وقيدت الخيل من كل وافق ، وقد بلغني أنك تنتفي من دم عثمان وتتبوأ منه. فان كنت صادقاً فادفع الينا قتلته نقتلهم به .

وانظر إلى كتاب علي ورقته « ... وذكرت بأن ابن عفان كان الفضل ثالثاً (ثالث الخلفاء) ... فان يكن عثمان محسناً فسيلقى رباً شكوراً يضاعف الحسنات ويجزي بها ، وان يكن مسيئاً فسيلقى رباً غفوراً رحيماً لا يتعاظمه ذنب أن يغفره ... أما الحسد فمعاذ الله أن أكون أسررته أو أعلنته . أما الإبطاء فما اعتذر الى الناس منه ... وان عثمان صنع ما رأيت فركب الناس منه ما قد علمت وأنا من ذلك بمعزل ، الا أن نتجنى فتجن ما بدا لك . وذكرت قتلته بزعمك وسألتني دفعهم اليك ما أعرف له قاتلاً بعينه . وقد ضربت الأمر إلى أنفه وعينيه فلم أره يسعني دفع من قبل ممن أتهمته وأظننته اليك » .

والكتب المتبادلة بين علي ومعاوية تكشف أسلوب كل منهما حتى ليبدو أن الجانب الأضعف هو علي وكأنه يتردد في القتال ، أما اذا علمت أن علياً كان يستطيع أن يبطش بطشاً نهائياً بجيش معاوية فستقع في الحيرة ... لماذا لم يبطش علي بمعاوية ، لماذا يتخطى تلك اللحظة الحاسمة في تاريخ الاسلام فيأخذ بناصية الأمر ويرد إلى الحق سيرته .

ان انتصاراً كهذا لم يكن يريده علي . كان يريد صدق الباطن ونقاوته لا انتصار الظاهر وسطحيته . ولهذا احتمل أن يراسله عامل من عماله بتلك الجفوة فلا يذكر لقب الخلافة في كتبه بل يوسعه شتماً .

ولقد احتمل علي من معاوية ما يحنق المؤرخ وهو يرقب هذا الصبر الغريب البعيد الغور أشد الحنق .

على أن علياً لم يتحرك للقتال الا حين تحرك خصومه . وبدأ معاوية بداية تتفق مع استعداده فاحتل عند «صفين» موقع الماء ليمنع جيش علي منه فلم يهاجمه علي بل أرسل من يطلب أن يكون الماء شركة بين الفريقين فلا ينبغي أن يحرم منه فريق وان يستأثر به الفريق الاخر حتّى ولو كان الأمر أمر حرب ومن البهديي أن يرفض معاوية فيهم جيش علي فيجليه عن الماء ويحتله جميعاً ، وبدلا من أن يحرم علي خصومه بعد أن حرموه أمر أن يكون الماء شركة بين المتقاتلين .

وتمضي الحرب على هذا السماح من جانب علي ، والمكر والخديعة من جانب معاوية حتّى إذا انهزم جيش معاوية رفعت المصاحف . ولم يكن علي رجلا بالذي يجهل دخائل النفوس ، بل كان يقرأ صدور خصومه كما لو كانت كتاباً مفتوحاً ، فلم يخدع أبداً ، بل هو لم يهزم أبداً في معركة من المعارك التي خاضها جميعاً . انه في كل حربه منذ أن وقف الى جوار الرسول محارباً . ولم يكد يتجاوز الحلم حتّى أصبح كهلاً على أعتاب الشيخوخة . وبالطبع كان يدرك أن رفع المصاحف لا يقصد وجه الحق ولا ما يقرره كلام الله المكتوب في هذه المصاحف . فهو أول من رفع المصاحف ، ليس بعد القتال والهزيمة بل قبل أن يبدأ القتال .

ولكن جيش علي انقسم ، أو أحدث فيه الانقسام . فرسل معاوية قبل المعركة كانت تذهب الى سراة القوم وضعاف النفوس ممن لم تدركهم بعد أخلاقيات علي وصحبه فتغريهم بالمال والمناصب وتدبر معهم كيف يحدثون الانقسام .

فاذا بفريق من جيش علي يطلب وقف القتال والاحتكام الى القرآن ، واذا بحجة علي ونقاشه المنطقي يذهب هباء فقد اشترى هذا اللجاج بالمال فكيف يباع بالحق .

وكان على الخليفة بعد أن بذل كل الجهد لتوحيد الصفوف ومواصلة القتال

أن يقر الغالبية على رأيها وأن يقف القتال . فهو نفسه قد علم أنصاره أن رأي الغالبية ينبغي أن يسود حتى ولو كان خطأ .

أما انصاره ، أو تجانب من أنصاره فقد غاظهم أن يكون الحق واضحاً كل هذا الوضوح ثم ينكص عنه لحجة واضحة البهتان . لم يدركوا أن علياً يضع أسساً للديمقراطية جديدة ، وأن وضع الأسس أصعب من الانتصار في معركة .

وقع علي بين فريق يريد مواصلة القتال وهو الأقل ، وفريق يوافق على الاحتكام وهو الأكثر ، وكان عليه أن يختار جانب الغالبية بعد أن عجز عن الاقناع .

ولعل علياً - وهذا هو أسلوبه دائماً - كان واثقاً من النصر ، فهو يعلم أن الحق في جانبه ، وأنه لا محالة منتصر قرب العهد أو بعد .

وتمت ألعوبة التحكيم وأتت بنتائجها المثيرة للسخرية ، ولكن بعد أن خرج عليه المتعصبون للقتال دون أن يدركوا معنى التشاور والمشاركة الاختيارية في القتال . وبعد أن ضعفت نفوس بالرشوة ، وبشظف القتال .

ومع ذلك فقد سار سيرته يحاول ويقنع ، فاذا لم يفلح الجدل والاقناع والتحيير بين السلام والقتال دخل المعركة حانقاً ومضطراً فكتب له النصر في كل معركة .

وعندما رفض ألعوبة التحكيم المخزية وقرر القتال كان الوهن قد تسرب إلى الصفوف . كانت الحرية ضيفاً طارئاً على النفوس ، وكانت الشخصية الانسانية أمراً من الصعب أن يوجد قبل أهوال وأهوال . فالحرية علمت أنصاره الجدل الفارغ وعلمتهم اللجاج واختيار الدعة والسكون . فها هو ذا حاكم ينقد

ويجادل فلا يوقع العقاب وهذا هو حاكم يقسم أموال الدولة على المسلمين جميعاً فيجد كل فرد رزقه مكفولا ، فما الحاجة إلى القتال ، وما معنى المبدأ ، وما معنى النضال .

وكان علي يقول ان معنى هذا كله أن تقلب الأمور وأن تستذل النفوس وأن تتدنى أرواح الناس فتزهق دون رحمة أو لحظة من تردد ، وأن يستأثر الأقوياء بالأموال والخيرات وأن يحرم الضعفاء من كل شيء فلا يجدون القوت الضروري .

ولكنهم لم يدركوا شيئاً من هذا ، تقاعسوا وانكبوا على حياتهم الرخيصة التي أنشأها لهم علي ويسرتها مبادىء الاسلام ، دون أن يواجهوا ذلك العداء المتربص بكل هذه الخيرات .

ويقف علي موقفاً قلما نرى مثاله في التاريخ ، يدعو هؤلاء الى الاستعداد لقتال أهل الشام فلا يجد مجيباً وكأنه يطلب القتال لنفسه لا لحياتهم ولا لحياة الاجيال من بعدهم . وقد كان علي يستطيع أن يكون اكثر حزماً فيجيش الجيوش ويذهب بهم خلف أي مغريات ان يبيح لهم الغنائم أن ينمي طامحيهم بالمناصب أن يفعل شيئاً من هذا الذي يفعله معاوية مريداً به الباطل فلا خير أن يفعله هو مريداً به الحق . الا أن هذا لم يكن من خطة علي بل لعل انتصاره عندئذ يكون انتصاراً ناقصاً نقصاً خيراً منه الهزيمة .

ولذلك راح يخطب في الرجال كما يخطب القديسون والشهداء . ليس من سلاح في يده الا قلب الانسان .

وها هو ذا وقد بلغ به اليأس مداه يقول في جمعهم « يا أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة قلوبهم وأهواؤهم . ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . كلاكم يوهي الصم الصلاب . وفعلكم يطمع فيكم عدوكم

اذا دعوتكم الى الجهاد قلتم كيت كيت ، وذيت ذيت ، أعاليل بأباطيل . وسألتموني التأخير فعل ذي الدين المطول . حيدي حياد . لا يدفع الضيم الذليل ، ولا يدرك الحق الا بالجد والعزم واستشعار الصبر . أي دار بعد داركم تمنعون ؟ ومع أي إمام بعدي تقاتلون ... المغرور والله من غررتموه . ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب أصبحت لا أطمع في نصركم ولا أصدق قولكم ، فرق الله بيني وبينكم ، أبدلني بكم من هو خير لي منكم . أما أنكم ستلقون بعدي ذلا شاملا ، وسيفاً قاطعاً وأثرة يتخذها الظالم فيكم سنة ؛ فيفرق جماعتكم ، ويبكي عيونكم ويدخل الفقر بيوتكم . وتتمنون عن قليل انكم رأيتموني فنصرتموني ... فستعلمون حق ما أقول ... ولا يبعد الله الا من ظلم ...

ولنا أن نسأل أين كانت قيادات حزب اليسار ؟ لقد قتل منهم من قتل في المعارك التي خاضوها ، لانهم أول المتقدمين . وكم استنفد علي خبرة رجاله في مقاتلة الخوارج ، والانقلابات التي يدبرها خصوم اليسار . والغارات التي يشنها أنصار معاوية بين الحين والحين .

وعلي نفسه كان يصنع قياداته الجديدة من قلب المعركة ، وما تتكون القيادات الجديدة بين يوم وليلة . اما الصحابة الأولون والمناضلون الأشداء فقد بلغ أغلبهم سن الشيخوخة ، ومع ذلك لم يخلدوا الى الراحة ، فقد رأينا في « صفين » ، الصحابي الجليل والانسان الثوري العظيم عمار بن ياسر يخوض المعركة وهو قد جاوز الثمانين في أغلب الروايات فيها وهو الى جانب زعيمه وزميله ، لتصدق نبوءة النبي عليه السلام ، حين نظر إليه ذات يوم وهو في جمع من صحبه وقال « تقتلك الفئة الباغية » .

ان القيادات القديمة لم تفترق عن علي . وقد بذلت جهدها كله في التوعية والاقناع . ولكن عددها كان قد قل ، بينما المعركة أحوج ما تكون الى هذه القيادات التي وقفت الى جوار النبي وتعلمت منه عشرين عاماً أو يزيد .

وعلى الرغم من هذا كله فلم ييأس علي ، ولم يغير خطته فيشتري قلوب رجاله بثمن بخس ، كان يريد شعباً قوياً بذاته ، رجالا حقيقيين . وكانت خطته هي الصواب ، فلم يلبث أن دخل الاقتناع قلوب الرجال ، ولم تلبث التوعية أن أتت ثمارها وبدأ علي فعلا يستعد للقتال بجيش ضخم لم يدخل أحد فيه عن رهبة أو رغبة .

وقبل أن تنشب المعركة كانت الأمور تدبر في الشام . كانوا وراء الفتن ووراء الانقلابات ، ووراء الهمس ، ووراء الجدل العقيم الذي أنبث في صفوف أصحاب علي ، وراء كل شيء .

وظهرت الجريمة على السطح كوسيلة للخلاص .

والجريمة في صفوف اليمين سلاح يركن اليه دائماً . فمن قبل قتل عمر ابن الخطاب غيلة ، ومن بعد قتل الأشتر أحد أنصار علي الأشداء : قتل بالسم دس عليه غيلة وخيانة ، وقتل ابن أبي حنيفة ، وقتل محمد بن أبي بكر وسيقتل الحسن بن علي بعد ذلك بالسم وهو في بيته .

وكان معاوية يقول حين جاءه نبأ موت الاشتر بالسم في العسل . « ان لله جنوداً من عسل .. »

وهكذا بدأ التدبير لمقتل علي قبل أن يتحرك جيشه .

والروايات هنا تكاد تجمع على أن الخوارج هم وراء الجريمة فقد فكروا ودبروا أن ينتدب ثلاثة منهم فيقتلوا علياً ومعاوية وعمرو بن العاص في ساعة واحدة ويخلصوا العالم الاسلامي من الرجال الثلاثة الذين كانوا سبباً في انقسام الأمة .

وليس هناك شك في أن الخوارج اختصموا علياً وحاربوه ، وليس هناك شك

في أنهم كانوا يكتمون له العداوة والكره . ولكن لماذا لم يقتل علي الا حين استطاع أن يجمع كلمة انصاره ، وأن يكمل عدته لقتال معاوية وانصاره .

ثم لماذا تنجح الخطة بالنسبة لعلي ولا تنجح بالنسبة لعمرو بن العاص وبالنسبة لمعاوية ..؟

ثم أليس الاغتيال أسلوباً من أساليب معاوية ، سواء بالسيف أو بالسم .

ان الجريمة هنا مدبرة بإحكام شديد احكام يفوق أي جريمة أخرى . فقد رتبت ببراعة مستفيدة من كل الظروف . فهؤلاء ثلاثة من الخوارج . عبد الرحمن بن ملجم الحميري وعليه أن يغتال علياً . والحجاج بن عبد الله الصريمي وعليه أن يغتال معاوية وعمرو بن بكر التميمي وعليه أن يغتال عمرو ابن العاص .

وكان موعد الاغتيال في صلاة الصبح وكان من عادة علي أن يخرج للصلاة فيدعو الناس لها .

أما قاتل معاوية فزعموا أنه طعنه ولكنه لم يصبه لأنه كان دارعاً في رواية وفي أخرى انه أصابه اصابة خفيفة في جذعه . وأما قاتل عمرو فلم يصبه لأنه في هذا اليوم بالذات لم ينزل للصلاة لوعكة ألمت به .

أما قاتل علي فقد تربص له ومعه شريك حتى اذا خرج يدعو الناس للصلاة ضربه بالسيف في جبهته ، وضربه الشريك فلم يصبه ، وسقط الامام مدرجاً في دمائه .

أليس الأمر يدعو للتفكير والتأمل ..؟ ان هذا الاسلوب في التخلص من الخصوم ليس جديداً على قادة اليمين ليس في هذا الزمان وحده . بل في جميع الأزمان . أما هذا اليمين بالذات فيداه مخضبتان بالدماء وتاريخه حافل بأمثال هذه التدابير .

وليس هناك شك في أن حقيقة الجريمة قد عرفت في حينها ، وأن الشعب كان يعلمها أو على الأقل يشك في وقوعها ، فهناك رجال كثيرون قد أفصحوا عن هذا ، بل منهم من جهر بها أمام الناس ، وعلى رأسهم رجل من خيرة المسلمين وفي مقدمة صفوفهم هو أبو الأسود الدؤلي .

ولكن من يستطيع أن يجمع الصفوف بعد أن لم يكد علي بن أبي طالب نفسه أن يجمعهم ؟ من يستطيع أن يعبىء الجماهير للقصاص وللاستمرار في الثورة . قد وقعت الجريمة على اليسار وقوع الصاعقة ، وبهت الجميع ، وظهر أن الغالبية ارتج عليها وركبها الذعر ، فكانوا أسرع الى تصديق حديث المؤامرة حتى يريحوا انفسهم من الخوف ومن وخز الضمير .

وبعد يومين فقط قضى الامام الجليل دون أن يوصي بخليفة ، وقال ان الخلافة ينبغي أن تكون شورى بين المسلمين . وكانت آخر كلماته قول الله عز وجل : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ...» .

وبهذا أسدل الستار على أول صدام واقواه بين اليسار واليمين ولم تمض على اليسار في السلطة الا أربع سنوات ، ذهبت كلها في قتال المتآمرين ، وفي محاولة جمع الكلمة والاستعداد لتثبيت أركان الحكم الاشتراكي .

أما ذيول المعركة فتستحق الدرس ، لأن اليمين كان عليه أن يصفي كل أثر لليسار ، بكل ما يملك من قسوة ووحشية ، وهو ما فعله تماماً دون اي تردد .

ولكن هل انتهى اليسار تماماً من العالم الاسلامي ... ؟

تصفية اليسار

حين نتكلم عن حتمية الحل الاشتراكي الآن ، هل نستطيع أن نتكلم عن حتمية الحل الرأسمالي التجاري بصدد الحديث عن أزمة اليسار الاسلامي ؟ يبدو اننا نستطيع – على الاقل – ان نحاول ذلك .

وقد رأينا أن الرؤيا الاسلامية الجديدة جاءت بمبدأين أساسيين هما التوحيد والتكافل الاجتماعي ، وكانت هذه الرؤيا متفقة مع حاجة البيئة العربية الضيقة للتغير الفكري والاجتماعي ، ومتفقة مع حاجة العالم الواسع الى رؤية جديدة في الدول المتحضرة حينذاك . ومن هنا أخذ الاسلام طابعه العالمي ، وهو الطابع الذي برزت به الرسالة منذ أن احتملها نبي الاسلام محمد عليه الصلاة والسلام ، ومنذ أول كلمة جهر بها للتبشير بالإسلام .

ولقد وفقت الدعوة وأنشئت الدولة الاسلامية وأرسيت دعائمها على أسس وضعها النبي عليه السلام ، وختمت مرحلة البناء الأولى بالخطبة الشهيرة ، خطبة الوداع .

الا أن التيارات السياسية ظهرت سريعاً بعد ذلك ، وتصارعت صراعها الحاد حين اتسعت رقعة الاسلام بالفتوح العديدة التي تمت في عهد عمر بن الخطاب ، ثم بالاجراءات الجديدة التي اتخذها عثمان بن عفان مخالفاً فيها

سنة الخليفة السابق ، وممهدا للثورة التي قامت ضده وانتهت بمقتله وخلافة علي بن ابي طالب .

والاسباب التفصيلية لفشل ثورة اليسار الاسلامي كثيرة ، رغم أنها امتداد طبيعي بتعاليم الاسلام الأولى والتي لم يمض عليها اكثر من أربعين سنة ، ولعل أبرز هذه الأسباب هو التغيير الجذري الخطير الذي حدث في المراكز الاقتصادية بالنسبة لغالبية قادة المسلمين ، بل وبالنسبة للقاعدة الاسلامية التي تمثل عامة المحاربين .

ولا شك ان هذا التغيير كان له اثره الكبير ، حين وقف علي بن ابي طالب يخطب في أهل العراق يحثهم على القتال فلا يجد منهم أي استجابة ، مع ما له من مكانه في قلوب جميع المسلمين ، فضلا عن أنصاره ومؤيديه .

والنجاح الذي أحرزه معاوية لا يرجع إلى براعته في المناورة والخداع واستعماله لكل الاساليب التي أنف اليسار الاسلامي أن يلجأ الى أقل القليل منها بل يرجع أساساً الى مواتاة الظروف الاجتماعية له .

فاذا قام الاسلام ليحقق العدل الاجتماعي ، وينتصف للفقراء والمعدمين من احتكار التجار المكيين واستغلالهم البشع ، انتهت القيادة للدولة الاسلامية بعد أربعين سنة فقط إلى أن يتسلم هؤلاء التجار المكيون أنفسهم قيادة الدولة وأن وأن يمضوا بها إلى أبعد مدى . فكأن الاسلام قد وحد الجزيرة العربية فكرياً وجغرافياً ليوسع مجال العمل أمام هؤلاء التجار ، وكأنه فتح الفتوح لا لينشر رسالة الاسلام السامية ، بل ليمكن لهؤلاء التجار من مصادر الثروة .

وحين يفسر بعض المؤرخين الغربيين المحدثين الاسلام من ناحيته الاجتماعية بأنه ثورة التجار ، لا ينظرون في الواقع الى أصل نشأة الاسلام والى مبادئه ، بل

إلى التحول الذي حدث بالانقلاب الأموي ، وينسون تماماً المبادىء الاسلامية ذاتها والثورة الاسلامية ذاتها التي قامت من الناحية الروحية والاجتماعية على فكرة أصيلة هي وحدانية الله واشتراكية الجماعة وتكافلها .

ولعل الدين الاسلامي هو الدين الوحيد الذي كتب له الانتصار في بداية الدعوة ، وكتب له أن يحقق نموذج الحياة الاجتماعية التي دعا اليها في عهد نبيه الكريم وقد تقوم الديانات السماوية كفكرة ودعوة أولا ، ويستشهد في سبيلها عشرات الألوف قبل أن تتحقق في واقع الحياة. بل لعل هذه الديانات لا تضع نموذجاً للحياة الاجتماعية لا من الناحية النظرية ولا من الناحية الواقعية ، وان كانت تتضمن في مبادئها العامة ما يمكن أن يستخلص منه نموذج لهذه الحياة .

اما الاسلام فقد استطاع ان ينشىء هذا النموذج في الحياة الواقعية الا أن تطور الحياة الاجتماعية حطم هذا النموذج وتخطاه رغم المقاومة الشديدة التي اضطلع بها ثوار هذا الدين العظيم ورجاله العظماء .

فهل كانت النظرية الاجتماعية للاسلام سابقة لاوانها ؟

اذا كانت الاجابة بالايجاب فاننا سنضطر إلى طرح سؤال آخر ، وهو لماذا حقق انتصاراً حاسماً بل مذهلا حتى كان النظر والتطبيق متلازمين في عهد الرسول عليه السلام وفي عهد الخلفاء الأولين .

واذا كان الاسلام مناسباً للظروف الاجتماعية التي ظهر فيها في حدودها الضيقة ، أي في الجزيرة العربية ، فهل هو غير مناسب حين اتسع العالم الاسلامي وتغيرت الظروف الاجتماعية والاقتصادية .. ؟

ان الاجابة السريعة على هذا السؤال تقول بالايجاب .

ولكن اذا لاحظنا ان الاسلام — على الاقل من ناحيته الاجتماعية — لم يتوقف صراعه مع القوى اليمينية التي ترى الملكية حقاً فردياً مطلقاً ، والتي لا تنظر إلى

التكافل الاجتماعي الا من زاوية المجاملة الزائفة لمبدأ من المبادىء الاسلامية الثابتة . تنظر اليه تقية ومداراة . اذا لاحظنا أى هذا الصراع لم يتوقف طوال القرون الاربعة عشر التي مضت على الاسلام كان لنا أن نتوقف قليلا لنتأمل في الاجابة الصحيحة .

ويبدو من استقراء التاريخ الاسلامي ، أنه صراع بين فكرتين اساسيتين ، فكرة التكافل الاجتماعي وفكرة سيادة الفردية . وهو صراع تدخل فيه عدة عناصر مكملة . فهناك فكرة العصبية العربية ، في مقابل فكرة تساوي المسلمين امام الله وامام الشريعة وفكرة الديمقراطية أو الشورى ، أمام الملك المتوارث والحكم المطلق ، وفكرة أن الاسلام يدعو إلى التأمل العقلي ويحض عليه . وفكرة التسليم والايمان غير المفكر أو المتدبر وكل هذه الافكار المتصارعة وغيرها شقت طريقها في الحياة الاسلامية . منذ واجه اليسار اليمين ، واتخذت في كل عصر من العصور الثوب الذي يلائمها .

فالتيار الاجتماعي للاسلام لم يتوقف لحظة عن الصراع ، بل هو على مدار التاريخ حقق بعض الانتصارات الجزئية ، ومني ببعض الهزائم ، ولا شك ان للظروف الاجتماعية دخل كبير في نجاح ثورة أو فشلها ، الا أن روح الثورة تظل كامنة وتكتسب في كل معاركها خبرة جديدة ، وتتسلح بنظر جديد ، وهو الأمر الذي حدث بالنسبة لفكرة الثورة الاسلامية .

وحين نقول الآن بقابلية الشعوب العربية للفكر الاشتراكي ، فنحن نعني في الواقع هذا التراث الضخم من الصراعات البطولية التي بدأت مع الاسلام بتضحياتها وشهدائها ، وحين تتحدد معالم التطبيق الاشتراكي العربي على أساس من التراث ، فان هذا يعني الاستمرار الطبيعي للفكر الاشتراكي الأول ، استناداً إلى واقع تاريخي طويل المدى وعميق الجذور . فالفكر الاشتراكي العربي الحديث ليس منقولا من مصادر اخرى ، وليس استنباطاً من الواقع

المحلي فحسب ، بل هو امتداد متطور واستمرار لروح الثورة الاسلامية ، انه متأصل الجذور بعيد الأعماق يرجع إلى تلك المقاومة المجيدة التي قام بها اليسار الاسلامي والتي يلحظها المؤرخ الموضوعي ، في كل هبة من هبات اليسار التي لم تنقطع في أي عصر من العصور . بل اننا نستطيع القول في نطاق الموضوعية أن ثورة ٢٣ يوليو بنجاحاتها الثورية وبتطبيقاتها الاشتراكية وبدليل عملها الثوري الذي تبلور في الميثاق الوطني هي النجاح الحاسم لتيار اليسار الذي يرجع إلى أبعد مما يتصور الكثيرون .

ووظيفة هذا البحث بالذات هي اكتشاف الاستمرار التاريخي لليسار في المنطقة العربية التي تركز فيها الصراع بين اتجاهات اليسار واليمين . فالكفاح من أجل العدل الاجتماعي لم يتوقف ، وهو قائم في كل المراحل يضعف احياناً ويشتد أحياناً أخرى .

وهو ليس تنظيراً ثابتاً لا يدخله التعديل ، بل هو فكرة جوهرية أصيلة تتعدل جزئياتها وتفاصيلها بالخبرة وبتغيير الظروف . والفكر الاشتراكي العربي اكتسب خبرات عديدة من احتكاكه بالثقافات المختلفة التي مرت بها الحضارة العربية ، كما اكتسب الفكر الفردي العربي خبرات عديدة من احتكاكه بالثقافات الأخرى ، ففي صدر الاسلام نرى الفكر الاشتراكي مختلفاً في تفاصيله عنه في العهد الأموي ، وعنه في العهد العباسي ، وعنه فيما تلا ذلك من العصور ، وهو لا ينحصر فقط في مجاله الاجتماعي ، بل يتسع ليشمل نظرته الى الدين والفلسفة والعلوم والتاريخ ، وبالتالي فان الفكر الاشتراكي العربي الحديث يمتاز بنفس الميزة ، وهي انه فكر متطور يتشكل بواقع الحياة التي يحاول تنظيمها وبواقع الحياة في العالم المتحضر بأسره. ومن هنا كان تفتح الفكر الاشتراكي العربي الحديث على كل النوافذ ، سنة اختطها الفكر الاشتراكي العربي من قديم الأزمان ، واذا كانت الظروف الاجتماعية الآن في المنطقة العربية أصبحت ... مواتاة للتطبيق الاشتراكي ، بل جعلت الحل الاشتراكي حلا حتمياً ، لا ...

حيث الجبر الاقتصادي والاجتماعي وحدهما ، بل من حيث الانطلاق الحضاري لتلك الأمة التي قام فيها لأول مرة في العالم فكر منظم عن العدل الاجتماعي والتكافل الاجتماعي .

اذا كانت هذه الظروف مواتية الآن فذلك لأن نضال اليسار الاسلامي في المنطقة لم يتوقف وكان في كل عصر يزود المناضلين بتجاوب وخبرات الاسلاف من شهداء الفكر الاشتراكي القديم ، مما جعل الحل الاشتراكي حتمياً من الناحية الفكرية ايضاً إلى جانب الناحية الاقتصادية والاجتماعية .

ومن هنا نستطيع أن نعود لنقطة البدء ، حيث هزم اليسار بمقتل علي بن ابي طالب وبتمزق كتله وتجمعاته ، تحت ضربات بارعة من اليمين . أكانت هذه الهزيمة أمراً حتمياً ، بمعنى أن هناك جبراً نابعاً من حركة المجتمع الإقتصادية والاجتماعية يفتح الطريق أمام دولة رأسمالية التجار ؟..

وبمعنى آخر ، هل كان اليسار الاسلامي سابقاً لعصره ... ؟

ليس هذا صحيحاً تماماً ، وهو لن يكون صحيحاً لمجرد أن اليمين حقق انتصاراً حاسماً بدليل أن عشرات الألوف كانوا يقاتلون وراء علي بن أبي طالب وعشرات الأولوف كانوا على استعداد للقتال وراء الحسن ثم الحسين ، ثم وراء زعماء اليسار في كل عصر من العصور ، بل إن الثورة العباسية ذاتها ما هي إلا امتداد لثورة اليسار على الرغم مما طرأ عليها من تحول إلى اليمين .

كل ما نستطيع قوله أن الظروف الاجتماعية كانت عاملا حاسماً من بين عوامل حاسمة أخرى كمثالية اليسار مثلا وارتباطه بشرف الوسيلة كشرف الغاية إلى حداثة العقيدة في النفوس إلى حرية اليمين في العمل دون أي قيد من ضمير أو مبادىء حتى المبادىء الاسلامية ذاتها .

فالتغيير في المراكز الاقتصادية في المجتمع العربي ثم في عهد عمر ولكن

المجتمع بدلا من أن يتجه إلى اليمين في عهده راح يتجه إلى اليسار حتى وقعت جريمة اغتيال عمر ، ثم مؤامرة تنحية علي بن ابي طالب عن الخلافة واسنادها لعثمان ، وهي المؤامرة التي نجحت جزئياً لانها انتهت بثورة عارمة استرد فيها اليسار السلطة .

وسوف نرى أن فشل اليسار لا يرجع وحده إلى آن هناك حتمية تاريخية بقدر ما يرجع إلى ضعف جبهة اليسار وتفككها ، وان كنا بالتأكيد لا ننفي اثر الظروف الاجتماعية بل نسلم بأنه أثر شديد الفاعلية كما لا نستبعد الظروف التاريخية العالمية حيث كانت الدولة الاسلامية الجديدة تصطدم مباشرة مع الدولة الرومانية على الحدود وبعد أن انتزعت منها الكثير من أراضيها اننا نضع في الاعتبار قوى اليسار وقوى اليمين . كما نضع في الاعتبار الظروف الاجتماعية داخل المجتمع ذاته ونضع في الاعتبار ايضاً الظروف العالمية المحيطة .

قوى اليسار بعد مقتل علي

المعركة بين علي ومعاوية تحولت في بعض صورها الى معركة بين العراق والشام ، ولذلك كانت شيعة علي تضم فيمن تضمهم عناصر لم تدخل المعركة على الاساس الاجتماعي، بل لعل الكثير من رؤساء القبائل والذين وفق معاوية في شراء أغلبهم في معركة صفين دخلوا المعركة وهم تحت سطوة سلطان الدولة برياسة علي من ناحية وتشيعا لأهل العراق ضد أهل الشام من ناحية أخرى وطمعاً في السيادة والغلب اذا كتب النصر لعلي وثبت مركز الخلافة في العراق ، وكان إلى جانب ذلك مجموعة من المؤمنين بعلي ومكانته في الاسلام قبل أن يعوا تماماً حقيقة المعركة وفي النهاية كانت هناك القوى المؤيدة لسياسة علي من الناحية الاجتماعية سواء عن وعي أو بحكم وضعها الطبقي . ومن هؤلاء كانت غالبية قاعدة جيش علي .

فاليسار الاسلامي لم يكن كتلة واحدة متجانسة ، بل كان مليئاً بالثغرات ومن هذه الثغرات نفذت سهام معاوية إلى معسكر اليسار وأخطر الضربات التي وجهت إلى اليسار تلك الضربة التي انتهت بمهزلة التحكيم وهي ضربة درست بعناية واشتريت ذمم الذين خذلوا علياً عن الاستمرار في القتال فاحدثوا البلبلة في صفوف الجيش وما تبع ذلك من انقسام وخروج الخوارج ومغالاتهم . ثم توقف الحرب دون نتيجة بعد ان كان الانتصار وشيكاً .

وهنا ينبغي ان نتوقف قليلا لنسأل ألم يكن في استطاعة علي أن يقضي على الفتنة وأن يمضي في القتال أو ألم يكن يستطيع أن يحسب مقدماً طبيعة القوى التي تحارب في صفه فيبعد القوى المتهافتة أو التي لا ترتبط بالمصلحة الطبقية والمذهبية المباشرة عن مجالات الاتصال بالخصوم ؟ أو كان على الأقل يستطيع أن ينظم نوعاً من الرقابة على هؤلاء المشكوك في قوة ولائهم؟ انه بالتأكيد كان يستطيع ذلك ، بل هو كان يستطيع أبعد من ذلك أن يمنع الماء عن جيش الشام كما منع جيش الشام الماء عنه . وعندئذ تكون هناك فرصة لاتصال رجال معاوية برؤساء القبائل الذين يحاربون في صف علي .

واذا كان معاوية ورجاله استطاعوا أن يختاروا من بين أنصار علي من لديه قابلية للخيانة بحكم الوضع الطبقي والمصلحة الطبقية فهل لم يكن في مقدور علي أن يحذر هؤلاء الرجال ؟

كل هذا كان ممكناً بغير شك فان هؤلاء المتآمرين وان استطاعوا أن يصلوا بمؤامرة التخذيل والتحكيم إلى غايتها لم يستطيعوا ان يمنعوا التأييد الشعبي عن علي فيما تلا ذلك من وقائع . ولقد قضى علي وقتاً طويلا حقاً ليجمع الجيش مرة أخرى ولكن هذا يدل على انه كان واسع الشعبية وان الجماهير كانت وراءه وان تآمر المتآمرين لم يكن حاسماً في نتائجه .

وبناء عليه فهل لو تجنب علي كل هذه المزالق واستطاع أن يسحق جيش

معاوية هل كان الحل الرأسمالي التجاري هو الطريق الحتمي للتطور الاجتماعي في الامبراطورية العربية .؟

ان أحداً لا يستطيع التكهن بذلك وهي مخاطرات فكرية لا يعتد بها كثيراً . ولكن علياً خلال السنوات الأربع التي قضاها في الخلافة وفي ظل تلك الظروف ترك لنا حصيلة كبيرة من السلوك الاشتراكي ، سواء في اقرار حق جماعة المسلمين في بيت المال وتوزيعه عليهم وسواء في اتصاله بعماله والأوامر والتعليمات التي كان يوجهها اليهم .

ولسنا ندري على أي وجه من الوجوه ما اذا كان تغير المراكز الاقتصادية الذي نتج عن اتساع رقعة العالم الاسلامي وبالتالي صار للمهاجرين والانصار وغيرهم من عرب الجزيره مكان القيادة فيه ، لسنا ندري هل كانت هذه القيادة ستظل مؤمنة بالمبادىء الاسلامية في التكامل وهي ترى الثروات الهائلة في متناول أيديها .

كل هذا رجم بالغيب حقاً وبعيد عن الروح العلمية ، ولكن الذي حدث قبل خلافة علي أن عمر بن الخطاب استطاع أن يحدد اقامة القادة المسلمين وأن يحميهم بذلك من اغراء الفتنة واغراء السلطة والمال واستطاع ايضاً أن يحرم الملكية الفردية في المال الثابت واستطاع أن يقول انه سوف ينظر في فضول مال الاغنياء ليوزعها على الفقراء ، أي أنه كان في صدد اعادة توزيع الثروة .

حقاً ان عمر في النهاية قد قتل وانتكس المد الثوري الذي بدأه ، ولكنه على أي حال حاول ونجح في محاولته وهو نفس الأمر الذي حاوله علي وأوشك على النجاح فيه ولم يفسد هذا النجاح الا مؤامرة قتله .

ان الامام الذي كان يتجه نحو اليسار كانت حياته تنتهي بالقتل . وهذان امامان من أكبر أئمة المسلمين قتلا في ظروف مريبة وبحجج واهية .

فهل لم يكن لليسار قوة الا في هذين الامامين الجليلين . بالتأكيد كانت هناك قوة وإلا ما كان عمر نجح فيما نجح فيه، وما كان علي قد وصل الى السلطة .

قوى اليسار على تفككها لم تكن ضعيفة ولم تحكم مصيرها حتمية التاريخ بقدر ما حكمت هذا المصير قوى الصراع نفسها .

والمسألة في النهاية ان الثروة التي غمرت الجميع في عهد علي وبعد الانطلاق الذي حدث في عهد عثمان على أوسع نطاق حولت الصراع إلى صراع مذهبي لا تؤازره تماماً المصالح الطبقية الحادة . أي أن قوى اليسار لم تتحرك بدوافع اقتصادية ملحة بقدر ما تحركت بدوافع مذهبية أو فكرية . وما زال البشر وسيظلون إلى مدى بعيد تحركهم التحديات المادية أكثر مما تحركهم الدوافع الفكرية فان صح أن قلة من المفكرين الممتازين عقلياً وروحياً تستشهد في سبيل فكرة سامية الا أن الغالبية من الناس لا ترتبط بالفكرة السامية اذا لم تصف لها هذه الفكرة مصلحة مادية مباشرة وواضحة .

وليس معنى ذلك أن اليسار الاسلامي لم يكن يسعى لتحقيق مصلحة اقتصادية إلى جانب سعيه لتحقيق المثل العليا للإسلام فالواقع أن هذا اليسار كان يدافع عن فكرة تتصل اتصالا جوهرياً بصالح الجماعة الاقتصادي وهي توزيع الثروة توزيعاً عادلا . لكن من الصعب في النهاية على البشر حين تكون مصادر الثروة متاحة لكل من يبادر اليها أن يفكروا في تنظيم التعامل فيها وفقاً لنظام أو منهج يتساوى فيه الجميع وفقاً لجهادهم وامكانياتهم .

وهو الأمر الذي يفسر الخيانات المتلاحقة التي ظهرت في صفوف جماعة علي وليس أغربها موقف ابن عمه عبد الله بن عباس والعتاب الشديد الذي جرى بينه وبين علي لأن عبد الله لم يكن يرعى الله في مال المسلمين الذي اؤتمن عليه. وعبد الله هو ابن العباس صاحب المواقف المشهورة في صدر الاسلام وهو هاشمي لا يميل به هوى إلى بني أمية وسوف نرى أن عبد الله هذا سعى إلى معاوية

ومن بعده أخوه عبيد الله وصالحاه على أن يترك لهما ما حملا من بيت المال بعد مقتل علي .

وغير عبد الله وأخيه كثيرون فهذان هما اقرب الناس إلى علي وبنيه ولكن السلطة واغراء المال احدثا هذا الأثر فيهما .

والاغرب من هذا ان الحسن نفسه لم يقف الوقفة التي كانت مرجوة منه ومهما قيل في تبرير ضعفه أو في تبرير تسليمه الثورة لمعاوية فانه يعتبر خالف رسالة ابيه ولم يتمها .

فتغيير المراكز الاقتصادية كان له أثر كبير بغير شك حتى في ألصق الناس بقائد الثورة ومن هذه الزاوية نفسها نستطيع القول بأن هذا التغيير كان له أثره الحاسم في فشل ثورة اليسار .

قوى اليمين بعد مقتل علي

أما هذه القوى فكانت على العكس من قوى اليسار ، كانت تربطها المصالح المادية ربطاً مباشراً بل كانت مصالحها الاقتصادية مهددة بمبادىء علي وتطبيقاته وهي قوى ناضلت قبل الاسلام في ضراوة وألفها الاسلام وجاملها حتى يحين الحين فتلين قلوبهم بالاسلام ولكن الحوادث كانت أسرع وكانت هي أيضاً بارعة في العمل

فحين أراد أن يؤلف النبي قلوب آل أمية وخاصة أبا سفيان بن حرب آمن الذين يأوون إلى بيت أبي سفيان ثم عاد فقبل من هذا الداهية أن يضم ولده معاوية الى كتيبته وقرب اليه أيضاً أخاه يزيد ، وكان رسول الله يأمل أن يضع اولاد هذا الخصم العنيد تحت جناحه وان تنتقل اليهم روح النبوة وآدابها الكريمة ، وان يكونوا في نفس الوقت تحت عينه . والحق أن أحداً لم يكن يجرؤ على ان يكيد للاسلام في عهد النبي وما كان ليصل إلى غايته لو أنه جرؤ .

ولكن آل أبي سفيان وبني امية بوجه عام اندفعوا إلى مراكز السلطة في سرعة وذكاء وفي غير يأس واكتسبوا من اسلامهم حماية وفي كل مرحلة من المراحل كانوا يكسبون موقفاً رغم سمعتهم السيئة وموقفهم القديم من الاسلام واستغلوا في سبيل ذلك الخلافات القائمة بين القادة الاقدمين وهي خلافات تنشأ في كل زمان ومكان . بل ان ابا سفيان جاء إلى علي فمد له يده بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام وقال له امدد يدك فاني أبايعك لولا أن رفض علي وأيده العباس . فأبو سفيان كان يعلم ان جماعة من المسلمين ترى أن علياً أحق بخلافة المسلمين وانه امتنع عن بيعة ابي بكر .

وهو يعلم ايضاً أن جدلا ثار بين المهاجرين والانصار حول الخلافة وان الامر حسم لصالح ابي بكر وبمؤازرة عمر .

فهل كان ابو سفيان يقصد وجه الاسلام ؟ أم كان يرى بوادر فتنة فيسعى لاذكائها . وأبو سفيان أولا وأخيراً هو آخر من يبايع لعلي بن ابي طالب .

كان أبو سفيان يسعى لقيادة قريش وقد وفق في هذا وجمعهم وراءه ضد الاسلام وهو سعى لهذه القيادة لتكون له الرياسة لتكون له الثروة

ولتكون له الدنيا فما الذي يمنعه هو وآل بيته أن يسعوا لهذه الرياسة ولهذه الدنيا في ظل الاسلام .

وكان صراع أبي سفيان والكثيرين من بني أمية وأحلافهم صراعاً مستمراً بأهداف واحدة سواء في الجاهلية أو في الاسلام . وقد جمع في تحضيره الطويل كل أصحاب المصالح . وفي خلال حكم عثمان استطاع أن يجعل كاتبه الأول ومستشاره أخاه مروان ابن الحكم وكان هذا الأخير وراء جميع التعيينات الخطيرة التي حدثت في الولايات بل كان وراء كل قرار اتخذه حتى كان من أسباب الثورة المباشرة ضد عثمان . وفي تقدم مطرد صار لليمين قوة يحسب حسابها في كل المواقع . اليمين بقيادة ابي سفيان كان يعمل

وفقاً لخطة محددة وفي الخفاء وفي العلن ان أمكن ، أما اليسار فكان في زهو الانتصار يبني ويؤسس ويتجاوز عن بعض الاخطاء وعن بعض الاشخاص المشبوهين والمشكوك في صدق اسلامهم وفي النهاية فالدين لله ولبس من حق أحد أن يدخل في النيات وحتى آيات القرآن الكريم في المنافقين لم تنبه إلى الخطر فكيف نميز المسلم المخلص لربه واسلامه من المسلم نفاقاً وتقيه ما دام الجميع يذكرون اسم الله ويؤدون شعائر الله ويشهدون أن لا إله الا الله أن محمداً رسول الله ؛ بل لعل المنافقين كانوا أسرع الناس تلبية للصلاة وتأدية للشعائر .

وفي هذا العمل المدبر الصابر الدؤب صارت لليمين قوة ولم يعد يميناً جاهلياً ، بل يميناً اسلامياً مستفيداً من كل التناقضات . ومن الرواسب الاجتماعية ومن التسامح ومن زحمة البناء والتأسيس .

واذا أفلح اليمين في كل هذا أفلح في أن يقنع عمر بتولية معاوية لولاية دمشق، ثم أفلح في اقناع عثمان في أن يثبته على الشام كله. وفي الشام حيث لبني امية مواقع من قديم الزمان بدأ معاوية يعد صفوفه وينظمها ويجمع القوى ويركز الثروة ويبني للملك القادم . وحين ذهب أبو ذر إلى دمشق وقف ذاهلا أمام بناية ضخمة لم يفرغ بناؤها بعد سائلاً غما تكون هذه البناية فقيل له انها الخضراء قصر معاوية الجديد فقال قولته الشهيرة اما اذا كانت هذه من مال المسلمين فهي الخيانة واما اذا كانت من مال معاوية فهو الاسراف ومن هنا بدأت حملته على معاوية، تلك الحملة التي انتهت بنفيه الشهير .

ولم يستطع أبو ذر أن يؤلب الشعب على معاوية وعلى عثمان ، فحتى هذه اللحظة كان اليسار ينصح ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وكان أبو ذر يقول انه يتوجه بالنصح للأغنياء قبل ان يتوجه بدعوته الى الفقراء وكان يقول انه يتمنى الا يضطر إلى هذه الوجهة الاخيرة فتكون الثورة .

وقد مات ابو ذر قبل أن تنشب الثورة على عثمان ولكنه من غير شك كان أحد دعاتها والممهدين لها .

على أن اليمين بكل قواه ارتكز خلف معاوية فهو الذي يمثل اليمين الشاب وهو يمثل، الى جانب هذا أو فوق هذا، ذلك البيت الذي سعى للرياسة أيام الجاهلية وسار خلفه كل أصحاب المصالح . ومن هذه الناحية كان معاوية مرشحاً لقيادة اليمين ولهذا بدأت كل عناصر اليمين تلتف حوله .

واستفاد معاوية من حكمه للشام فراح يشن الحملات التوسعية تارة في عهد عمر وطوراً في عهد عثمان، وكان يحارب في هذه الميادين بعقلية السياسي لا المبشر فحين نشب القتال بينه وبين علي صالح الروم على جزية يدفعها حتى يسكتوا عنه ويفرغ من علي وهو موقف يثير التأمل والانتباه .

ومن حملاته تركز الخراج في بيت المال تحت سلطته ومن الوهلة الأولى وهو يعتبر أن بيت المال ملك له يتصرف فيه كيف شاء فكان هذا المال المتدفق من تلك الولاية الغنية ومن في الحروب تحت يده يشتري به الانصار ويغدق عليهم ويحرم الاعداء وقد قضى أبو ذر أغلب ايامه في الشام دون أن ينال من عطائه شيئاً حتى مرض اولاده وماتوا من الجوع تقريباً .

جبهة اليمين اذن كانت متماسكة وكانت تجذب الأنصار بما تغدق عليهم من المال وبما تهيئه لهم من الاستقرار وكان من أسلوب اليمين ألا تمتد يد السلطة إلى مال حصة أحد العمال أو كبار الموظفين حين يعتزلون العمل حتى لو كانوا غاصبيه .

وعلى عكس ذلك كانت الأمور تجري في معسكر اليسار . اذ لم يكن هذا المعسكر يقدم لأنصاره الا راحة الضمير ومرضاة الله . كان اليسار يحاسب العمال حساباً عسيراً حتى لوكانوا اقرب المقربين إلى الخليفة وكان اليسار

الرسالة الصعبة وكان يفضل عليها أن يحيا حياة هينة لينة بعيداً من متاعب النضال ومشاقه .

وفي الايام الأولى من خلافته وفدت الكتب من أثرياء العراق على معاوية تدعوه إلى حرب الحسن وتكشف له عن ضعفه فلم يتحرك معاوية ، ولعله كان يعلم ان المفاوضات السلمية مع الحسن ستأتي بالنتيجة المرجوة .

على أن المناضلين من انصار علي لم يسكتوا ، كما أن الجماهير لم تسكت بل ان قيس بن سعد استطاع أن يجند اثني عشر الف مقاتل فأمره الحسن عليهم وأشرك معه عبيد الله بن عباس في أرجح الروايات .

وسار قيس بن سعد بالجيش وخرج وراءهم الحسن بجيش آخر بعد قليل وانتشرت الاقاويل بأن الحسن لم يكد يفرغ من تسيير الجيش الأول حتى بدأ يجري مفاوضات للصلح مع معاوية وانتقلت هذه الأقاويل الى جيش قيس بن سعد وبدأ التذمر حتى اذا وصل الحسن الى المدائن وجد رجال قيس في حالة من التذمر والقلق اشتد بسببهما الجدل . ويبدو أن هذا الجدل لم يزل قلق الجيش اذ ثار الغضب ببعض المقاتلين فهجموا على الحسن وطعنه احدهم طعنة أصابته في غير مقتل وساد الهرج في الصفوف ونقل الحسن ليعالج من جرحه وانفضت الناس .

وحين برىء الحسن من جرحه انتقل من المدائن الى الكوفة وهناك بدأت مفاوضات الصلح علناً وأسرع الكثيرون قبل أن تنتهي هذه المفاوضات إلى نتيجة يذهبون إلى معاوية أو يراسلونه باعلان ولائهم وكان في طليعة هؤلاء جميعاً عبيد الله بن عباس نفسه . وكان الذين يسبقون باعلان لولاء يحملون كل ما يستطيعون من المال ويستأمنون عليه معاوية فكان يؤمنهم وهكذا تفرق حزب اليسار .

وفي هذه الاثناء لم يتزعزع موقف قيس بن سعد الذي دعا اليه جنده .وخطبهم

مخيراً بين البقاء معه وقتال معاوية أو الدخول فيما دخل فيه الامام وبالطبع آثر الناس السلامة وتركوا أمورهم للمقادير .

شروط الصلح

وليس مهماً أن ندخل في تفاصيل هذه الشروط وعلى الأخص فيما يختص باشتراط معاوية أن تكون الخلافة للحسن من بعده وأن يعطيه كل سنة مليون درهم من بيت المال وان يكون له فوق ذلك خراج كورتين من كور فارس. يرسل اليها عماله يجبونها .

فهذه الشروط التي عرضها معاوية كانت من قبيل المساومة اذ انتهت بأن امر الخلافة شورى ، أي أن الحسن لا يخلف معاوية وحرم الحسن من خراج الكورتين على أن الحسن حين تحرك إلى المدينة حمل معه حوالي خمسة ملايين درهم ووفى له معاوية بالمليون درهم التي شرطها على نفسه .

وكان من أهم شروط الحسن تأمين أنصار علي على أنفسهم وأموالهم وذراريهم ، وهو الشرط الذي لم يعبأ به معاوية بمجرد ان غادر الحسن العراق إذ سرعان ما أغرى معاوية هؤلاء الأنصار بالمال أو هددهم بالقتل فاستسلم البعض فيما عدا القلة الصلبة التي كانت تتاسى بالرسول في تحمل شظف العيش لتؤدي رسالتها .

على أن المناضلين لم يكفوا عن لوم الحسن حتى تجرأ عليه الكثيرون فكان منهم من يقول له كلاماً خشناً ، ولكنه كان يرى أن خطته هي المثلى وأنه قصد إلى هدنة يحقن فيها الدماء .

ورأى اليسار ان الأمر في حاجة الى جمع الصفوف وتنظيم الجماعة حتى اذا حان الحين هبوا للقتال واستولوا على الحكم .

الجولة الاخيرة

خلا الجو لمعاوية بعد مقتل الحسن بالسم ، وبدا أن قيادة اليسار قد صفيت مرتين : مرة بالصلح مع الحسن ومرة بمقتل الحسن . أما — زياد بن أبيه فقد تكفل بالقضاء على كل العناصر القيادية في العراق ، مستعملا في ذلك أبشع الوسائل .

وفي المدينة عاشت الأرستقراطية العربية في بحبوحة من العيش ، عاشت في قصور ناعمة يجلب اليها من كل الأقطار وسائل الترفيه ويعيش في غرفاتها القيان والعبيد ويجلس الأمير في حاشية من صحبه وخدمه والمتزلفين اليه .

وكانت أرستقراطية المدينة تتكون أساساً من الولاة السابقين الذين فروا بمال بيت المال أو أغدق عليهم معاوية ما شاءت له سياسته ليتقاعدوا ويكفوا يدهم عن السياسة .

ومن كبار المحاربين ذوي الأعطيات الضخمة وأصحاب الثروات الطائلة ومن أبناء هؤلاء جميعاً وأتباعهم . وستصبح المدينة بعد ذلك مكاناً شاعرياً يظهر فيها الغناء والشعر والموسيقى والرقص كأزهى ما كانت عليه مدينة في عصور الأزدهار القديمة .

ومن الممكن تصور كيف كانت تفكر هذه الأرستقراطية . كانت أحاديث السياسة هي الغالبة ، وكان البحث عن مواقع القوى ومراكز التجمع والأنصار

هو شغلهم الشاغل وفي المدينة كان الحسين ظاهراً كأكثر الرجال شعبية ، وأظفرهم برضاء عامة المسلمين وقواعدهم . وكان هناك أيضاً عبد الله بن الزبير وهو ابن الزبير بن العوام أحد قادة المسلمين الكبار كما كان هناك عمر بن سعد ابن أبي وقاص الصحابي الكبير وأحد الذين بشرهم النبي بالجنة كما كان هناك الوزير المسن مروان بن الحكم قطب بني أمية الكبير ، كما كان هناك عبد الرحمن بن خالد بن الوليد . وغير هؤلاء كثيرون من نفس الطبقة أو أقل قليلا .

وكل من هؤلاء كان يتطلع الى الخلافة وينظر إلى السياسة ويفكر فيها من هذه الزاوية . ووراءهم مباشرة يأتي الولاة الذين يستمدون سلطانهم في حكم أمصار ضخمة كالعراق ومصر وغيرهما من الانضمام إلى هذا الفريق أو ذاك

والنظام الفوقي للدولة يتكون عموماً من هذه الأرستقراطية التي تصطرع فيما بينها على السلطة وتكون كل منها تجمعات حولها في مواقع مختلفة تستفيد منها في تدعيم نفوذها وتتربص باللحظة المناسبة للوثوب إلى السلطة .

ولكن أقوى الأحزاب جميعاً هو الحزب الحاكم المنتصر حزب معاوية الذي لم يكن يملك النفوذ فقط بل يملك القوة الرسمية الضاربة ايضاً . وهي القوة الوحيدة المنظمة . واذا كانت الارستقراطية العربية المقيمة في في المدينة تملك المال الوفير ، فان هذا المال لا يقاس ببيت المال الذي يتحكم فيه معاوية والذي يجبى اليه من جميع الأمصار التي تخضع لحكم الدولة . فالمال مال الله ومعاوية خليفة الله ، يصرفه كيف شاء .

وفي هذا الصراع العنيف من أهل السلطة كثرت التجمعات وغلبت المصلحة على كل شيء ووصلت الاخلاق العامة إلى أقصى درجة في الانحدار .

ورأينا كيف يخرج الرجل من ولاء إلى ولاء في سهولة ويسر وهو في ولائه

ذهب أبو هريرة إلى زينب يخطبها إلى يزيد فما كان منها بالطبع الا الرفض وانقاذا للموقف سارع الحسين بزواجها حتّى اذا رجع عبد الله بن سلام خائباً ردها الحسين دون أن يقربها .

ولسنا ندري كيف عادت المرأة الجميلة ذات الكبرياء الى زوجها الذي باعها أبخس الاثمان على أنها ــ على الاغلب ــ قد عادت اليه انقاذاً للموقف ولعلها لم تخلص له قلبها بعدَ ذلك ابداً .

مثل هذه القصة تكشف عن المدى الذي وصلت اليه أخلاق الناس وكيف إستطاع الحكم ان يفسد هذه الأخلاق حتّى يهبط بها إلى هذا المستوى .

وسنجد أن الأخ يخذل أخاه والأبن يعق أباه وأن الخوف والطمع هما المحركان الاساسيان في هذا المجتمع .

وفي هذا الجو المخيف من انهيار القيم فكر معاوية في أن يورث الخلافة فى بيته ولم ينقض نصف قرن على الاسلام .

صاحب مبدأ الشورى والذي نفى أول ما نفى مسألة الوراثة ، فهي في رأي قادته الأولين أسلوب كسروي وقيصري يتنزه عنه الاسلام الذي يرى أن الخليفة يختاره المسلمون بمحض ارادتهم وأن المسلمين أخوة كأسنان المشط وأنه لافضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى .

وتروي الكتب القديمة أن معاوية قد أوحى اليه بهذه الفكرة من أحد الدهاة المتزلفين هو شعبة بن المغيرة وكان الخليفة قد غضب عليه في أمر من الأمور فأراد أن يشتري رضاءه بهذه الزلفى وأن يضيف اليها اسهامه في انتزاع البيعة من الولاية التي يحكمها .

ومثل هذه الرواية لا تستبعد في هذه الظروف والواقع يؤكدها ، فقد انتهى الأمر فعلا إلى خلافة يزيد بن معاوية .

ولكن الغريب أن يزيد هذا كان سكيراً عربيداً متبطناً . وقصة غرامه بزينب بنت اسحق تكشف عن طبيعته المتبطلة المستفسخة . وانها لجرأة في النفاق من شعبة بن المغيرة هذا أن يقترحه على معاوية خليفة المسلمين .

على أن شعبة كان يعلم بغير شك أن معاوية الذي خاض كل هذه الأهوال متذرعاً بأباطيل كثيرة لن يتردد في فرض خليفة على المسلمين .

وبدأ معاوية يعمل لتنفيذ الفكرة غير عابىء برد الفعل الخطير الذي سيحدثه في الرأي العام للمسلمين، فما من مسلم الا ويعلم سيرة يزيد وما من مسلم الا ويرفض أن يتحول الاسلام إلى كسروية أو قيصرية .

ومع ذلك فقد فرض يزيد خليفة على المسلمين وبويع بالخلافة في عهد أبيه ولسنا في حاجة الى تقصي قصة هذه البيعة ولا ما قيل من روايات كثيرة عن الأسلوب الارهابي الذي اتبعه معاوية الا ان الواضح أن الشعب كان في واد والسلطة في واد آخر . وحين يحكم السيف تضيع الكرامة ويستسلم الناس ويستدعون من أنفسهم كل الكوامن الخبيثة ليعايشوا السلطة القاهرة بأسلحة من طباعها .

وفي بعض فترات التاريخ يبدو الواقع حاداً شديد الحدة . فيخيل للانسان الذي يعايش هذا الواقع أن كل ما قرأه عن القيم الخيرة والنزوع البشري إلى الخير إن هو الا أوهام كتاب حالمين لم يصطدموا بالواقع. فعند احتدام هذا الواقع لا يستطيع الانسان أن يميز بين الخطأ والصواب .

وحين ينتصر الباطل في أفضح صوره في موقعة أثر موقعة ويكتسح الحكم الارهابي أمامه كل العقبات يحدث ما يشبه الوباء العام . وتصبح غالبية الناس جبناء ونهازين وقتلة ومجرمين . حتى يصعب تصديق أن الطبيعة الانسانية تحتوي على أي احساس يمت للخير بصلة .

ان نفوس الناس تنهار واحدة اثر الأخرى والعدوى تنتقل انتقال الوباء

ولسنا ندري لماذا يختار البطل الثوري الجانب الخاسر في اللحظات الحاسمة حين يكون الاختيار بين أمرين : التراجع الآن ، والعذاب المحقق ، وكما ينطبق هذا على الثائر القائد ينطبق على الثائر الجندي . وعلى المشانق والمقاصل والصلبان وفي حجرات التعذيب الحديثة والقديمة يظهر هذا الجنون المصمم المنتحر . وهو جنون يقابل جنوناً من نوع آخر — جنون السلطة الذي يجافي كل قيمة من القيم الانسانية ، جنون وحشي مصمم يثير من الدهشة ما يثيره ثبات الثائر واصراره .

وأروع لحظات الاستشهاد لا تظهر الا في لحظات الانحدار الروحية الشديدة ، وكأن المجموعة البشرية تطلق كل امكانياتها في هذه اللحظات الشديدة الخطورة .

عندئذ يصبح الصراع الطبقي مجرد ذريعة لتتخطى البشرية هوة الانحدار الأخلاقي .

وأمامنا الكثير من قصص الغدر والخيانة والتوحش في تلك الفترة لتدلنا على مدى ما وصل اليه الانحدار الأخلاقي في تلك الفترة التي عزم فيها الحسين ابن علي على التصدي للنظام .

فلقد رأى الحسين كيف تخاذل الأنصار عن أبيه ، بل رأى أعمامه يندفعون إلى مستوى الخيانة ، ورأى أخاه الحسن يؤثر السلامة ، ورأى ضعف الناس ازاء السلطة والاغراء . ورأى غير ذلك من الحوادث الغريبة التي تشكك الرجل في نفسه .

ومع ذلك خرج الحسين ، وهو يحسب أن الناس ما زالوا يطلبون العدل الاجتماعي ، وانه من الطبيعي أن ترفض الكرامة البشرية أن يفرض عليها حاكم

سكير عربيد في مجتمع يعتبر السكر والعربدة معصية تستوجب عقاب الله والمجتمع .

والحسين منذ اللحظة الأولى قد اختار دوره . فطبيعته ترفض كل ما يحدث ، وهي ترفضه لحد الأزمة . ان السيف والارهاب يطالبه بالبيعة ليزيد فلا يبايع ويأوي إلى مكة . وفي مكة يتقاطر عليه الناس يدعونه إلى الخروج وطلب البيعة . ولو لم يطلب اليه الناس ذلك لكان قد خرج أيضاً أو لمات قهراً . فالى جانب الذين حضوه على الخروج كان هناك الذين يحضونه على إيثار السلامة .

وكانوا من أخلص الناصحين له . ومع ذلك لم يقبل السلامة .

جاءته الكتب من العراق بأنه لو وفد عليهم لبايعوه ، فاتخذ هذه الكتب ذريعة ليلعب دوره المقدور عليه .

أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى اصحاب هذه الكتب يستطلع الأمر واستقبل مسلم استقبالا حسناً ولم يملك الوالي هناك أن يتصدى له . بل كان ما فعله هو النصح . فما أن علم مستشارو الخلافة الدهاة بموقف الوالي حتى اقترحوا عزله وتعيين عبدالله بن زياد بن أبيه في مكانه . فجاء عبد الله هذا وهو النموذج المقابل لمسلم وللثوار . رجل السلطة الذي تحكمه طبيعته ايضاً ليوغل في الاثم إلى الدرك الاسفل . ونشبت المعركة سجالا بين الجبن والشجاعة وبين اللؤم والنبالة . فهو يفر من وجه الجماهير ويحتمي بالقصر ثم يظهر في صورة الجبار حين تتفرق الجماهير ، ويخلف العهد ، ويغري بالمال ويغري بالسلطة ويستعمل سلاح الارهاب والتخريب . حتى يستطيع أخيراً الظفر بمسلم فيقتله قتلة شنعاء ويلقي برأسه من أعلى القصر .

وتأتي كتب مسلم الى الحسين بأن عشرات الألوف ينتظرونه لمبايعته فيتحرك الحسين فيبلغه ما حدث لمسلم ، وبدلا من أن يتراجع مؤثراً السلامة

يقرر المضي إلى العراق محتجاً لنفسه ولأهله ونفره القليل بأنه حين يدخل العراق سيلتف الناس حوله . وكان يعني أن وجوده بينهم سيقضي على خوفهم وتخاذلهم ويردهم إلى آدميتهم . وهو بذلك يجدد دوره ، انه بعث الروح من جديد ليس اكثر .

ويمضي الحسين وليس معه الا سبعون رجلا ونساؤه وأطفاله .

وفي هذه اللحظة يكون الحسين قد أدرك الموقف كله فهو يعلم أن جيوش عبد الله بن زياد قد تعترضه ، بل هي قد تعترضه قطعاً ، وعندئذ تكون النهاية .

ولكن الحسين كان يعلم أنه لا بد من فدية ضخمة ، فدية تتوهج بالدم . وكان هو الوحيد الذي يملك أن يتقدم كفدية تهز الضمير شبه الميت في قلب الأمة.

ان الامر هنا ليس حنكة سياسية وليس غفلة سياسية ليس واقعية رومانتيكية انه إمر واضح تماماً يرتفع عن مستوى الغفلة أو الخيال . هو موقف أشبه بموقف المسيح ، موقف الفدية والمخلص أذكى وأشرف رجل في عصره يقدم نفسه ليوغل فيه أعداء القيم العليا ما شاء لهم انحدارهم كآخر ما يستطيع أن يصل اليه بشر فتكون الصرخة التي توقظ ضميراً خربوه بكل الوسائل .

وهكذا مضى الحسين في طريقه الى العراق فتخاذل عنه من تخاذل واختفى من حوله صغار الناس الذين ساروا في موكبه أول الطريق حين علموا بخروجه الى البيعة . لم يمض معه الا هؤلاء الذين تمثلت فيهم الثورية بمعناها العميق ثورية التغيير الجذري للقيم ذاتها .

وتبلورت القوى الثورية هنا في هذه الجماعة الصغيرة التي تقطع الصحراء متحدية مصممة ليس لها من أمل الا في أن تعدي الناس بالثورة وان تعدي بالذات تلك الجيوش التي قد تقطع عليها طريقها الى العراق .

وهذا الأمل هو الذريعة التي تذرع بها الحسين ليحقق هدفه وهو الشهادة في أكمل صورها .

وفي الطريق يسأل مجمعاً بن عبيد العامري فيقول له « أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائزهم . فهم الب واحد عليك وأما سائر الناس بعدهم فان قلوبهم تهوي اليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك »

وفي هذه الجملة تلخيص ذكي للقوى القائمة فأشراف الناس هؤلاء الذين يملكون الثروة لم يعد يهمهم في شيء أن يخرج حفيد النبي . بل لعل خروجه يهمهم من زاوية أخرى وهو أن هذا الحفيد يريد أن يغير مراكز القوى وأن يعيد توزيع الثروة وأن يمضي في نفس الطريق الذي مضى فيه أبوه فهو من هذه الناحية عدو طبقي لا يهمل خروجه في طلب البيعة الا ان الحسين بن علي بن فاطمة الزهراء ابنة رسول الله والسلطان قوي وليفعل ما يشاء .

ولكن السلطان ليس بهذه البلاهة انه لا يلقي بدم الحسين على عاتقه وحده فمن أراد أن يدافع عن ثروته وعن مركزه الاجتماعي فليشترك في دم الحسين .

وسنرى أن رجالا من هذه الطبقة أهيب بهم أن يشتركوا في قتل الحسين وكانوا بين خوف وغضب السلطة والشك في ولائهم ثم للمصلحة الطبقية الواضحة ، وبين أن يأثموا بدم الحسين . على أن الأمر لم تكن له هذه الخطورة فمن قبل قتل الامام نفسه ومن بعده قتل الحسن مسموماً . كما قتل محمد بن أبي بكر وعبد الرحمن بن خالد . إن الاحساس بالاثم كان إحساساً هيناً يمر بالخاطر مراً سريعاً ، ولولا ان الحسين بالذات تربى في حجر النبي ولولا انه رجل يمثل الصورة المثلى للاسلام . لما مر مثل هذا الخاطر بأحد .

ومن الناحية الأخرى فان سائر طبقات الشعب قد بلغ بها القهر والشك والخوف ما يجعلها تتردد ألف مرة في الثورة ، وفي العراق بالذات كان الرجل يؤخذ بمجرد الشبهة ، وسيرة زياد بن ابيه لم تنس بعد . فقد خطب فيهم خطبة خطيرة ورد فيها انه سيأخذ البريء بالمسيء حتى اذا رده حجر في هذا وذكره بقول الله (ولا تزر وازرة وزر اخرى) فكانت حادثة حجر وأصحابه الشهيرة .

لاقى شعب العراق صنوفاً من الضغط لم يلقها شعب آخر جيلا وراء جيل فكيف كان يمكن لهذا الشعب المطحون أن يهب لمساندة الحسين ، والخوف يقضي على كل كرامة وقد استطاع الحكم الأموي أن يزرع الخوف وأن يجعله القوت اليومي للشعب العراقي .

وبهذه الصورة لم يكن لخروج الحسين الا معنى واحد هو الشهادة .

التراجع والشهادة :

وأي سياسي آخر غير الحسين كان يستطيع تقدير الموقف وأن يتراجع في الوقت المناسب أو يرى طريقاً آخر للكفاح . أما التراجع فقد كانت فرصته أمامه حين شارف أرض العراق وجاءته أنباء مقتل مسلم بن عقيل وانفضاض الناس من حوله .

ومع ذلك فقد استمع باهتمام الى واحد من صحبه يقول (ما أنت مثل مسلم ابن عقيل ولو قدمت الكوفة لكان الناس اليك أسرع) .

واقتنع الحسين لم يفكر ولم يتدبر موقفه .. أكان ذاك عن سوء تدبير ؟

لا يستطيع أحد أن يحكم هنا بسوء تدبير الحسين فهو منذ تحرك من مكة كان يعلم أن الوضع قد بلغ الحد الذي يدفع إلى المواجهة الى القتال الصريح مهما تكن القوة التي تجابهه ..

وقد تأكد له الموقف بعد ذلك حين أرسل قيساً بن نسعر الصيداوي فقتل هو الآخر ثم عاد فأرسل عبد الله ابن بقطر فألقي من شرفات القصر .

أي شيء اذن كان يتوقعه .

انه يلح في الاتصال بالشعب فقد وضع أمله فيه وان لم يستطع الاتصال به

عن طريق الكتب اذ كان رسله يقتلون واحداً بعد الآخر . فليس هناك الا أن يتصل بهم بحدث يزلزل كيانهم .

أهذا كان تفكير الحسين ؟

ليس من الضروري أن تكون هذه الفكرة واضحة في الذهن . يكفي أن تكون هي الموجه لكل تصرف وجميع تصرفات الحسين تؤكد أن مثل هذه الفكرة وراءها .

لم يكن أمامه الا أن يتراجع وكان أكثر من مبرر للتراجع . فهؤلاء الذين كتبوا اليه يستقدمونه انفضوا عن رسوله حتى قتل وها هو ذا يرسل آخرين فلا يكون حظهم خيراً من حظه .

فلماذا لم يتراجع ؟ الا انه كان عليه عندئذ أن يمنح البيعة ليزيد وكانت هذه في رأيه أكبر الكبائر أليعتكف في حرم الكعبة ، وهل كان ليزيد أن يتحرج عن قتله في قلب الحرم .

ليس أمامه الا أن يمضي في طريقه فهو يعلم تماماً أن ظهوره أمام الشعب سوف يجمعهم حوله يعلم كيف يحدثهم وكيف ينزع الخوف من قلوبهم . ولكن كيف يصل إلى مداخل العراق وعبد الله بن زياد يرصد له الجيوش الآن ..

ان الموقف لا يصعب تقديره على الرجل العادي .

ومن المؤكد أن الحسين كان محيطاً به من كل جانبه . وربما خالجه ظن بأن أي جيش سيعترض طريقه لا يلبث أن يلين له حين يخاطبه فيزيل الغشاوة عن عينيه . هذا خاطر لازمه مع خاطر آخر لم يفارقه وهو أنه مقتول بغير شك اذ كان يردد أن الموت كتب على ابن آدم ..

كان يضع موته في كفة وثقته في الناس في كفة . فهو لم يفقد الثقة في الجوهر الكامن في النفس الانسانية ذلك الجوهر النازع الى الارتقاء الروحي .

ومرة أخرى لم يتراجع الحسين بل مضى في طريقه .
لم يكد الحسين يمضي الا قليلا حتى ...

الصدام الأول :

التقى عند جبل ذي حسم بجيش من الف فارس يقوده الحر بن يزيد وهو أحد الأشراف الذي أشار اليهم مجمع بن عبيد العامري ، بل سنرى ايضاً ان اختيار الرجال الذين سيحاربون الحسين تم بدقة حتى تتبلبل أفكار الشعب فالقائد الذي قاتل الحسين في معركته الاخيرة كان عمر بن سعد بن ابي وقاص ابن صحابي كبير وقائد عظيم وأحد الذين بشرهم النبي بالجنة .

ماذا يقول الشعب عندئذ ... ابن علي بن أبي طالب يقاتله ابن سعد بن ابي وقاص ...

وانه لأمر مثير للدهشة أن يأتمر عمر بن سعد بن أبي وقاص بأوامر عبد الله بن زياد . ابن فاتح فارس وصحابي رسول الله يأتمر بأمر ابن زياد مجهول الأب المشكوك في نسبه .

بل ان عمر لا يأتمر بأمر عبدالله فحسب ، بل يتملق ويدهن اليه ، فحين جيء بمسلم بن عقيل بين يدي عبيد طلب مسلم أن يفضي بكلمة الى عمر وتقدم اليه عمر فهمس في أذنه مناشداً قرابته أن ينفذ وصيته التي سيفضي بها اليه وهي أنه يرد ديناً عليه قد اقترضه من رجل بالكوفة فيبيع سيفه ودرعه ويفي دينه وأن يرسل إلى الحسين من يمنعه من المجيء مصححاً رسالة سابقة بأن الناس معه .

إلى هذا المدى فقد أعاظم الرجال كرامتهم فالى أي مدى فقد الشعب المقهور هذه الكرامة ؟

تقدم الحر بن يزيد فقال للحسين انه أمر بأن يقدم على عبيد الله بن زياد .

لم يجبه الحسين بل أمر مؤذنه أن يؤذن لصلاة الظهر ثم خطب الجميع أصحابه وخصومه على السواء أو خصومه بوجه خاص ، :

«أيها الناس اني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا امام لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق .. فقد جئتكم .. فان تعطوني ما أطمئن اليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم وان لم تفعلوا أو كنتم لقدومي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه » .

وكانت لحظة صمت جماعية لا يدري أحد ما جرى في أذهانهم ولعلهم كانوا جميعاً يودون لو يقاتلون من أجله ولكن الخوف والمصلحة وكل عروض الدنيا كانت تقف دون ذلك .

عندئذ التفت الحسين وقال للمؤذن « اقم الصلاة»، ثم التفت للحر بن يزيد وسأله هل يصلي كل فريق على حدة فقال الحر بل يصلى بصلاتك .

وانتهت الصلاة خلف الحسين وبدأ ركب الحسين يتجه وجهته وبدأ الحر يتعقبه ، وكلما اتجه وجهة أخرى حاصره ورده إلى طريق الكوفة ، وأخيراً وقف الحسين مرة أخرى يعظهم :

« ايها الناس ... ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

من رأى سلطاناً جائراً مستحلا لحرم الله ، ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير ما عليه بعمل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله . ألا وان هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفي واحلوا حرام الله وحرموا حلاله وأنا أحق من غيري وقد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم وانكم لا تسلموني ولا تخذلوني فان بقيتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم . وأنا

الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسي مع أنفسكم وأهلي من أهلكم فلكم في أسوة وان لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيعتي فلعمري ما هي لكم بنكير والمغرور من اغتر بكم فحظكم اخطأتم ونقيبكم ضيعتم . ومن نكث فانما ينكث على نفسه وسيغنيني الله عنكم » .

ولكن الخطبة أعقبها صمت تام ثم تقدم الحر يحذره بأنه اذا قاتل فسيقتل فصاح فيه الحسين « أبالموت تخوفني » ..

واصطبر الحسين ومضى والحر وراءه يمنعه كلما ابتعد عن طريق الكوفة والحسين يرفض أن يبدأ بالقتال .

وأخيراً ظهرت طلائع جيش جديد من أربعة آلاف رجل على رأسهم عمر بن سعد بن أبي وقاص لا أحد غيره .

وانتهت المناوشات بين الطرفين إلى أن حضر الحسين وصحبه في كربلاء وبدا أن الحرب لا بد أن تقع . فبعد قليل وصل شمر بن ذي الجوشن ليكون رقيباً على عمر بن سعد بن أبي وقاص اذا تخاذل .

وهنا جمع الحسين أصحابه ولم يكونوا جميعاً من أهله وقال لهم « لقد بررتم وعاونتم والقوم لا يريدون غيري . ولو قتلوني لم يبتغوا غيري أحداً .. فاذا جنكم الليل فتفرقوا في سواده وانجوا بأنفسكم » .

ولم يقبل واحد منهم أن يترك الحسين ويهرب بحياته ..

ويعود الحسين فيلح في هذا فلا يخرج من معسكره رجل واحد .

وكانوا سبعين رجلا بازاء خمسة آلاف رجل ..

عرض عمر بن سعد التسليم فرفض الحسين . بل طلب الاحتكام إلى الشعب وحصر الحسين وصحبه عند كربلاء بعيداً عن الماء حيث يحميه جيش عمر

ابن سعد واشتد الظمأ بالأطفال والنساء ، وحمل الحسين ولده عبد الله ليسقيه بنفسه ظاناً أن وجوده ومعه الطفل قد يمنع محاصريه من ايذائه ، ولكنهم رشقوا الطفل بسهم فسقط صريعاً بين يدي أبيه .. وتمالك الحسين أمام هذا كله نفسه فالى آخر لحظة كان يأمل في أن يبعث الروح في هذه الضمائر الميتة .

وتقدم الحسين يخطب الجيش وهو في رداء النبي صلى الله عليه وسلم ... فاذا بالجيش يحدث من الضجيج والضوضاء ما يغطي على كلامه . ولم يتراجع الحسين بل ظل صامتاً ، هدأت ضجتهم ثم انفجر قائلا : انسبوني من أنا .. هل يحل لكم قتلي وانتهـــاك حرمتي ؟ ألست ابن بنت نبيكـــم ؟ أولم يبلغكم ما قاله رسول الله لي ولأخي هذان سيدا شباب أهل الجنة ؟ ويحكم .. أتطلبونني بقتيل لكم قتلته أو مال لكم استهلكته ؟..

وقد أحدثت هذه الكلمات أثرها كالسحر ؟ وبدأ الرجال من جيش عمر بن سعد تنضم الى جانب الحسين .

وكان الموقف خطيراً فلو انتظر عمر قليلا لانفرط الجيش كله . كما أنه خشي الرقباء أن يبلغوا يزيداً بما حدث ، فما كان الا أن تناول سهمه ورمى به جماعة الحسين ، وهو يصيح اشهدوا لي عند الأمير انني أول من رمى الحسين .

وهكذا بدأ القتال في توتر وسرعة لا تتيح لكلمات الحسين أن تفعل اثرها .

وقاتل الحسين وصحبه قتالا مجيداً حتى سقطوا جميعاً وسقط الحسين مثقلا بجراحه مصاباً بمائة وعشرين طعنة ... ثم تقدم شمر بن ذي الجوشن فاحتز رأسه ... ثم وطأوا جسده الشريف حتى رضوا ضلوعه ومثلوا به أشنع تمثيل وحملوا الرؤوس ومضوا بها على أسنة الرماح الى عبيد الله بن زياد ... ثم إلى يزيد ابن معاوية .

وبذلك انتهت أول جولة لليسار مع اليمين . انتهت بأروع استشهاد وأعظم بطولة . وكانت شهادة الحسين أعظم انتصار للثورة لأنها تغلغلت في الضمير العربي ، وأحيت الضمائر التي خنقها الارهاب لتسقط بعد ذلك بستين عاماً فقط ... دولة بني أمية .

المـراجع

الوقائع والاحداث التي وردت في الكتاب رجعنا فيها إلى المصادر والمراجع الآتية ، وان يكن بعضها كان لمجرد التعرف على وجهات النظر المختلفة التي تناولت موضوع البحث .

- الاغاني لابي فرج الاصفهاني (طبعة دار الكتب المصرية)
- تاريخ الرسل والملوك لابي جعفر محمد بن جرير
- تهافت الفلاسفة لابي حامد الغزالي
- تهافت التهافت لابن رشد
- سيرة النبي لابي محمد عبد الملك بن هشام ، تحقيق الشيخ محي الدين عبد الحميد (كتاب التحرير)
- الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد
- العقد الفريد لابن عبد ربه
- الملل والنحل للشهرستاني
- أسواق العرب في الجاهلية والاسلام لسعيد الافغاني (دار الفكر بدمشق)
- أبو بكر الصديق لمحمد حسين هيكل
- حياة محمد حسين هيكل
- الفاروق عمر لمحمد حسين هيكل
- تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي لحسن ابراهيم حسن ج ١ ــ الطبعة السابعة (مكتبة النهضة المصرية) .
- التاريخ العربي القديم ترجمة فؤاد حسنين علي (مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨)

- الدولة العربية الى نهاية الدولة الأموية – تأليف يوليوس فلهاوزن – ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة .
- سلمان الفارسي والبواكير الروحية للاسلام . تأليف لوي ماسينيون – ترجمة عبد الرحمن بدوي
- العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان (دار الهلال)
- الفتوحات العربية الكبرى – تأليف جون باجوت جلوب– ترجمة خيري حماد
- فجر الاسلام لاحمد أمين
- ضحى الاسلام لاحمد أمين
- الشيخان لطه حسين
- « عثمان » لطه حسين
- علي وبنوه لطه حسين
- ابو الشهداء لعباس محمود العقاد
- عبقرية الامام لعباس محمود العقاد
- عبقرية عمر لعباس محمود العقاد
- مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول لاحمد ابراهيم الشريف (دار الفكر العربي)
- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام لبندلي جوزي

* W. Montogomery Watt : Muhammad at Mecca. (Oxford University Press), 1960
* W. Montogomery Watt : Muhammad at Medina (Oxford University Press) 1962

الفهرست

الصفحة

تمّ طبع هذا الكتاب في

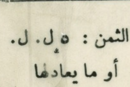
مطبعة المتوسط ش.م.م.

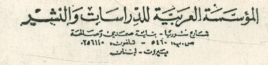
المكلس – لبنان

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت

صدر حديثاً

الأعمال الكاملة للامام محمد عبده	تقديم وتحقيق محمد عماره
الأعمال الشعرية الكاملة	محمود درويش
الدراما بين النظرية والتطبيق	حسين رامز رضا
المرأة والجنس	نوال السعداوي
الخوف من الحرية	اريك فروم
لينين	دافيد شوب
ماركس	س. ج. سبريغ
سارتر	فيليب ثودي
مراكز القوى في إسرائيل	ي. بن فورات
الجذور الاجتماعية للديموقراطية والدكتاتورية	مارنغتون مور
الميزان العسكري في العالم ١٩٧٢ - ١٩٧٣	معهد الدراسات الاستراتي[illegible]
بعد ان يموت الملك (مسرحية شعرية)	صلاح عبد الصبور
مد اللسان الصغير في وجه العالم الكبير	مؤنس الرزاز


الثمن : ٥ ل. ل.
أو ما يعادلها


المؤسسة العربية للدراسات والنشر
شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
ص. ب. ٥٤٦٠ - تلفون ٢٥٦١١٠
بيروت - لبنان